الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الجزء
2

فكرية شحرة

صاحب الابتسامة

رواية

فكرية شحرة

صاحب الابتسامة

الجزء الثاني

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر 2018م – 1440 هـ

ردمك 978-614-01-2622-0

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

الإهداء

إلى صاحب الظل الجميل..

الحقيقة التي منحتني حلماً كالخيال..

كنتَ لي الشمس.. والظل وجنات عدن في طريقي الطويل..

كل أسلوب في الكتابة هو كأس خمرة
ويجب أن تعاقر كل الكؤوس حتى تصل إلى نشوة السكر وأنت تكتب.

فكرية شحرة

هذه الرواية..

شخوص هذه الرواية حقيقيون عاشوا الأحداث حقيقة..

الرواية وثيقة لمرحلة من حياة اليمنيين وتاريخهم وليست من نسج الخيال، إلا في ما يحاكي الواقع تماماً..

(1)

لا أحد يريدك كما أنت؛

حتىٰ الموت سيجردك من جسدك ويصطحب روحك فقط.

وسط الصحراء بعيداً عن الطريق الأسفلتي، الذي أضاعت كثبان الرمال وانتشار الحفر وضوح ملامحه، لمح "حمد" شبح السيارة المقلوبة على ظهرها كحشرة ضخمة من حشرات ليل البيداء الحالك.

قال لرفيقه وهو يقود سيارتهما الصحراوية بسرعة:

- يبدو أنه كان صوت حادث آخر كما توقعت.

قُرب السيارة المحطمة كان جسد رجل مسجى بلا حراك قد انطفأ دفؤه بسرعة الريح الساخنة في صحراء مأرب.

فتشا السيارة وما حولها، بحثا عن أشخاص آخرين؛ لم يكن بالقرب أحد.

- هل تظن أن هذا الرجل – رحمة الله عليه – هو السائق وهل كان في السيارة وحده يا "حمد"؟
- لا أظن ذلك، عادة لا يأتي إلى هذا الطريق شخص منفرد دون رفقة؛ لكنني أظن أنه لا يوجد أحياء. انظر إلى السيارة كيف صارت؟ لقد تعرضت لصدمة بأحد الكثبان وطارت مسافة هائلة، ربما انقلبت انقلابات مروعة. تعال نبحث في دائرة أوسع، ربما تساقط ركاب أثناء انقلابات السيارة؛ انظر فقط إلى أي مدى انحرفت عن الطريق!!

وعلى ضوء الكشافات اليدوية المبهرة افترقا للبحث؛ كلٌّ منهما يرهف السمع، فأذن البدوي بدقة بصره. هتف رشيد بصوت مزق ضجيج الصحراء:

- يا حمد أسمع صوت أنين خافت يأتي من هذه الجهة.

انطلق حمد صوبه وهو يقول:

- ربما هي أصوات الليل أو خيالاتك... لكن صوت رشيد يقاطعه:
- هناك شخص.. بين الرمال.

وصلا معاً يسبقهما الضوء المبهر للكشافات يزيح الظلام عن الجسد المسجى في حفرة الرمل؛ وقف حمد عند رأسه يتفحصه فيما وقف رشيد عند قدميه محاولا تحريكه وقد سلطا ضوء المصباحين على وجهه. هتف حمد برهبة:

- يا الله إنه حي.. لا يزال يئن.. لكن عينيه على أقصى اتساعهما نتيجة الصدمة؛ هيا انطلق لجلب المحفة بسرعة يا رشيد يجب أن نساعد رجلاً يريد أن يعيش رغم هول الحادث.

***

هل كان يحلم..؟

يسمع ذلك الأنين المتصاعد بوضوح يصدر من حنجرته؛ لماذا يئن؟

لماذا لا يسكت حتى وهو يموت؟!!

هل يسمع أنينه أحد آخر؟ لم يلتفت لأنينه في هذه الحياة أحد.

والده الشامخ كعمود خيمة في هذه الصحراء يقف عند رأسه في تلك الحفرة الرملية يبتسم بثبات حزين كما رآه لآخر مرة؛ والدته الوالهة تحثو عند قدميه تبكي، بلوعة وكلاهما يشده إليه بقوة في اتجاهين مختلفين.

"فخري" آخر اليساريين الشرفاء يصرخ فيه:

- تحرر يا رجل؛ فهذه الحياة كريهة.

وأحمد النويرة يقف بعيدا وجسده يقطر عرقا كحبات الياقوت الأحمر ويصيح ضاحكا:

- يبدو أني سأسبقك يا وحيد..

يختفي أحمد حين يلفّ جسده برداء أبيض فيخضبه اللون الأحمر المتقاطر بغزارة من جسده وهو لا يزال يردد ضاحكاً:

- سأسبقك يا وحيد.

والداه يصبحان ضوءين مبهرين يغشيان عينيه، أحدهما عند قدميه والآخر عند رأسه. ضوء مبهر لا تحتمله عيناه المتألمتان فتتسعان

حتى المدى، كأنهما تحتويان ملامح وجهيهما قبل أن يتلاشيا كأحمـــد ليصبحا شمسين صغيرتين تحاول رفعه عن الأرض برفق.

ويغيب ليبقى الأنين الخافت كالنداء الأخير.

***

في مستشفى مأرب العام أُجريت الإسعافات اللازمة لإنقاذ وحيد؛ فعل الأطباء كل ما بوسعهم. كانت فخذه قد تعرضت للكسر إثر السقوط أو الارتطام بالأرض، وكان بحاجة إلى صفيحة تساند العظم المتفتت. كانت الخطورة في تلك الضربة القوية خلف الرأس، والتي خمن الطبيب أن سببها ارتطامه بقوة بسقف السيارة أثناء تقلبها. فيما عدا ذلك كانت كل الخدوش والجروح يسيرة العلاج.

حين عاد حمد مع بعض الأشخاص لجمع المقتنيات المتناثرة حول السيارة مع أغراض الرجلين، سهل عليهم معرفة شخصية وحيد وآخر الأرقام التي تواصل بها.

كان شائف آخر من اتصل به وحيد؛ وكان هناك في مأرب من أجل ملاقاته.

وصل شائف إلى المستشفى في حال من الكدر والحزن؛ فقد كان ينتظر وصول وحيد محملا برائحة صنعاء وإب وكل ذلك العمر الجميل الذي قضياه معاً.

لم يصدق عينيه وهو يرى رفيق اختبائه في منزل "أحمد النويرة" كم غيّره عامان من الهموم؛ شائف الذي كان يستنكر عادة التدخين عند وحيد خوفاً عليه قائلاً له:

– إن الهموم كفيلة بتدمير صدرك فلمَ التدخين؟..

ها هو مسجي أمامه قد هدّه أكثر من الهموم والتدخين جرح الوطن النازف.

خلال أيام من المراقبة وانتظار تحسّن حالة وحيد الحرجة انتابهم اليأس من أن يفتح عينيه رغم استقرار نبضه وتنفسه، فقرر شائف أن يرحل بصديقه إلى المملكة عبر منفذ الوديعة القريب، والذي ما زال يعمل في محاولة لإخراجه من غيبوبته وزرع صفائح لساقه المعطوبة.

رتّب للسفر مع صديقه "حافظ" الناشط في المنظمة الوطنية للإعلاميين اليمنيين (صدى)، التي تأسست في مأرب من قبل مجموعة من الصحفيين النازحين والمطاردين، والتي تسعى للدفاع عن حقوق الصحفيين والمختطفين منهم.

كان لحافظ أخ يدعى "صقر" يعمل في المملكة هو أحد الذين لجأوا للاغتراب من أجل الرزق مخلفا وراءه الوطن والأهل.

سبق أن عاد إلى اليمن مع انطلاقة ثورة 11 فبراير والحماسة تغمره لإزاحة نظام صالح الذي يراه سببا لغربته عن وطنه؛ عاد يحمل روحه على كفه في ثورة سلمية، قُتل فيها الشباب من حوله في "جمعة الكرامة"، وتهاوت أحلامهم بعد ذلك بفعل السياسة المراوغة التي أجهضت الثورة وحولتها إلى فوضى أهدرت دماء رفاقه وتضحياتهم.

في عودته تلك تعرف إليه شائف لتردده على خيمة المركز الإعلامي برفقة حافظ.

يعلم شائف أن العودة إلى المملكة صارت متعبة لصعوبة الحصول على تأشيرة دخول. لكنه لجأ إلى شخصيات كبيرة في حكومة الشرعية كي يُمنح تأشيرة دخول له ولوحيد بغرض العلاج كما يحدث لجرحى الحرب.

كان شائف قد عاد إلى مأرب للاستقرار فيها ضمن الكثير ممن عادوا إلى الوطن بعد أن صارت مأرب قبلة القلوب لتحقيق حلم الدولة واستعادة العاصمة صنعاء من قبضة الانقلاب. عاد الكثيرون ممن نزحوا إلى الرياض عقب اقتحام المليشيا صنعاء وبقية مدن اليمن خوفاً من الاعتقال والتصفية ضد منتسبي حزب الإصلاح وسواهم ممن ناهضوا المليشيا.

كان آخر لقاء جمعة "بوحيد الأمير" تلك الأيام التي قضياها معاً في منزل "أحمد النويرة" قبل دخوله المملكة؛ حين رفض وحيد ترك صنعاء ومصاحبته، وكان بمقدوره السفر آنذاك.

وماذا الآن؟!!

"وحيد" مسجى أمامه على سرير المستشفى، لا هو بالحي ولا بالميت، و"أحمد النويرة" رهن اعتقال المليشيا وقد يئسوا من إنقاذه ضمن صفقة تبادل أسرى.

وماذا بعد؟!! إلى أي مدى تتمادى الخسارات؟

***

بعد ساعات طويلة وسفر مرهق عبر طريق محفّر وصلت سيارة الإسعاف التي تقل وحيداً وشائفاً إلى منفذ الوديعة، ومنها إلى مستشفى شروره العام في الأراضي السعودية، ليتم طلب طائرة إخلاء طبي أقلته إلى مطار الرياض. وهناك استقبله "صقر" ومعه بعض أصدقائهم الذين علموا بالحادث الذي وقع لوحيد.

أُدخل وحيد مستشفى "سليمان الحبيب" في حي "العليا"، وهو مستشفى خاص اختاره شائف لشهرته رغم تكاليفه الباذخة.

ابتسم شائف برضا وطمأنينة ما إن دخل "وحيد" حجرة العمليات. لقد شعر أنه أخيراً استطاع أن يؤدي حق الصداقة والأخوة التي جمعتهما. طوال الأيام الماضية وهو يخفي قلقه أن تنطفئ أنفاس وحيد بين يديه دون أن يتلقى عناية طبية متخصصة، فإصابته قوية ومستشفى مأرب العام يزدحم بالجرحى، وليس فيه الإمكانات التي تؤهله للعناية بهكذا حالات جعل الأطباء ينصحون بأخذه إلى مستشفى أفضل في مدينة أخرى أو السفر به.

لم يقبل شائف نصائح البعض أن يكون وحيد ضمن قائمة الجرحى الذين يدخلون إلى المملكة لتلقي العلاج. خشي ألا يجد الرعاية والاهتمام الكافي فيكون الإهمال سبباً في موته أو خسارة ساقه، كما حدث للكثير من الجرحى حين بترت أطرافهم بسبب إهمال العلاج وتأخره.

بعد ساعات من الانتظار لخروجه من حجرة العمليات لعمل صفائح معدنية لفخذه، استقر وحيد في حجرة ناصعة البياض تحيط به أجهزة الإنعاش والتنفس.

وكما أخبر الطبيب شائفاً أن وحيد دخل في غيبوبة تحدث كحالة نادرة؛ قد يفيق منها في أي لحظة، وقد يتوقف تنفسه ونبض قلبه أيضاً في أي لحظة.

***

(2)

المعتقل ليس مشروع شهيد بل هو روحٌ لشخص حرّ حقّ له أن يعيش.

بن معوضة

فتح بن معوضة عينيه في الضوء الخافت كما يفعل كل صباح حين يستيقظ في فراشه، وما زال شبح الليل قائماً بين أزقة بيوت القرية.

كان يبتهل في سره أن تكون ذكرى البارحة مجرد كابوس جثم على صدره كجبل "ظفار" الرابض على صدر الأرض بصمت، لكن ساقيه المشدودتين والألم الذي يلسع مؤخرة عنقه يؤكد أن ما حدث بالأمس كان كابوساً مروعاً لكنه عاش تفاصيله حقيقة.

مكوثه ثلاث ساعات مشدود الأطراف بالحبال إلى طاولة خشبية، وتدلي ساقيه على حافتها حتى فقد القدرة على تحريكهما وهذا الألم المضني في عظام رقبته بعد أن بقي مضغوطا عليها لساعات على حافة الطاولة القاسية في الجهة المقابلة، كل ذلك يقول إنه معتقل لدى أقبح البشر.

تذكر قريبه الذي قُتل في مواجهات بين شباب في القرية المجاورة لقريته وبين مليشيا الحوثيين عند اقتحامهم تلك القرية إثر خلافات معتادة.

كان قريبه يحاول التوسط بين الأطراف لتهدئة الوضع فقط؛ لكنه قُتل أثناء الاشتباك برصاصة لا يعرف مطلقها، وكان على محمد أن يتحمل دمه ظلماً لا يدري كيف؟ فهو يكن حاضراً في

الاشتباك، إنما حضر موقفه الرافض لوجود المليشيا.

إلصاق التهمة كان أمراً معداً له من أجل الإيقاع به كمعارض وجود المليشيا الغادرة ورافض بسط نفوذهم في قرى المنطقة بذلك الوجه السافر في الظلم والتجبر.

كان أحد أولئك الذين قاوموا هذا الوجود الغاشم لمليشيا الخراب، بالتوعية ورفض وجودهم كبديل للدولة، بعد فرض وجودهم بقوة السلاح والقتل.

يومها اتصل به قريبه والد القتيل وكان في منزله بين أطفاله الستة، وأخذ يعاتبه بمرارة لقتل ولده، فطار صوابه صدمة وألماً لما يقول ولهذا الاتهام غير المعقول في حقه وحق أخلاقه، التي ترفض هكذا فعل، فهو الذي لم يرفع سلاحاً في وجه المليشيا فكيف سيقتل به قريبه وابن قريته؟

أخبر الوالد المكلوم أنه على أتم الاستعداد أن يسلم نفسه لهم وأن يكون دمه بدم القتيل لو ثبت أنه تواجد في مكان الاشتباك أو أن له يداً في قتل قريبه.

لكن إصرار الكثير ممن تواصلوا معه على أن يقوم بتسليم نفسه لحملة الحوثيين القابعة على مشارف القرية والجادة في طلبه جعله يخضع لمطلبهم، بعد أن أعطوه المواثيق ألا يُمس بأذى، وأن يلاقي معاملة إنسانية وتحقيقاً عادلاً ينصفه ويثبت براءته. وافق على تسليم نفسه وكانت هذه هي غلطته الموجعة حقاً..

ما إن وصل إليهم برفقة بعض وجهاء القرية حتى كبلوا يديه وعصبوا عينيه بشدة متعمدة حتى كادت عيناه أن تنفجرا تحت العصابة الثقيلة، وأُصيب بضغط شديد في رأسه جعله بمرور الوقت

يشعر بالدوار طوال الطريق، وهم ذاهبون به إلى سجن لم يستطع أن يحدد موقعه أو المسافة إليه..

وهناك جردوه من ساعته الثمينة وكل ما يمتلك في جيوبه كعادتهم.

كانت العصابة كما هي حول عينيه، ووجع رأسه يتفاقم مع قلق خفي مما ينتوون فعله به.

وعلى الفور مدّدوه على طاولة خشبية كانت أقصر من قامته، وربطوا أطرافه بقوة حول الطاولة، فبقيت ساقاه تحتكان بطرفها الحاد وعظام رقبته من الخلف تكاد تتكسر ورأسه يتدلى رغماً عنه.

ولساعات ظلت تُلقى عليه أسئلة لم يجد لها إجابة..

- من هم الذين يتزعمون مقاومة وجود أنصار الله في منطقتكم؟
- هل فلان من حزب الإصلاح هو زعيمكم؟
- ما الأسلحة التي تمتلكونها للمواجهة؟ ومن يمدكم بالسلاح؟

كانت أسئلة غرضها تعذيبه ذهنياً ونفسياً وكأنهم متأكدون من عدم وجود إجابات لها ولا ينتظرون أن يتحدث عنها، بل يتناوبون على تعذيبه في ذلك الوضع فقط.

كل من في قريته والقرى المجاورة يعلم أنه معلم وفنان يرسم الخط بمهارة ولا علاقة له بالسلاح أو الانتماء للأحزاب.

وأخيراً عقب ساعات طويلة فكّوا وثاقه وسحبوه إلى زنزانة ضيقة (كونتيرة) ورموه على أرضيتها مباشرة. ولشدة تعبه وألمه وذلك الغضب الذي يحرق صدره نام كالقتيل حتى الصباح.

***

في الصباح عجز عن الوقوف بسبب التسلخات في باطن قدميه وساقيه ورضوض جسده التي انتشرت كالإبر تخزه كلما تحرك ولو أدنى حركة.

كان التفكير في عائلته ألماً آخر ينغرز في صدره، فهو يعلم أي ضغط نفسي سيواجهون بسبب اعتقاله.

كثيراً ما يتعمّد الحوثيون دفع ذوي المعتقل إلى حالة يأس في عودة معتقلهم حتى يتم دفع مبالغ طائلة من أجل إنقاذه.

لثلاثة أيام كان قد بلغ به الإرهاق والقلق والجوع مبلغها، فلم يكن يُلقى إليه سوى كسرة خبز في اليوم مع إدام لا يُعرف له طعم واقتصر خروجه من زنزانته على مرتين إلى دورة المياه يصطحبه أحد حراس المعتقل.

كان أفراد المليشيا قد أخبروا كل من سأل عنه عن فداحة اعترافاته التي ستودي برؤوس كثيرة اشتركت في مقاومة حملة المليشيا، ما أصاب عائلته بحزن وقهر هائلين، وشعورهم بالعجز من إنقاذه أو إخراجه أو حتى رؤيته.

وفي مساء اليوم الثالث دخل عليه أحد مشرفي المليشيا وأمره بالخروج من الزنزانة طالباً من الحراس ربط عينيه.

فقال بن معوضة للمشرف:

- أنتم تعلمون أن لا علاقة لي بشيء وأني بريء من أي تهمة، ولهذا سلمت نفسي طواعية، فلماذا تفعلون هذا

ولماذا لا تطلقوني؟

فأجابه المشرف بسخرية:

- عليك أن تشكر الله أننا ما زلنا نعاملك برفق، بعد وجود أدلة أنك تقوم بالتحريض علينا ضمن مواقع التواصل التي تفسدون بها عقول الناس.

فقال محمد بحسرة غضب:

- أستحق ما دمت سلمت نفسي لكم.

فقال المشرف بسخرية أشد:

- كنا سنفجر بيتك.

فصرخ محمد بغضب أكبر:

- فجروه.. لا يهمني ذلك؛ لن تغني أحجار المنازل عن حرياتنا التي تفجرونها. لماذا كل هذا الحقد؟ ما الذي يجعلكم تفجرونه وأي فائدة ستعود عليكم؟

لم يجب المشرف الحوثي بل أمر أفراده أن يعصبوا عيني محمد بقوة ويخرجوه.

أخرجوه دفعاً من الزنزانة الترابية وأصعدوه إلى صندوق سيارة مكشوفة.

طوال سيرهم ومحمد يرهف السمع علّه يميز الطريق التي تمرّ فيها السيارة، والتي ظلت تسير لأكثر من خمس ساعات تعمد أفراد المليشيا ألا يتحدثوا بكلام يمكن أن يفهم من خلاله إلى أين يذهبون.

حين وصلوا إلى المعتقل الجديد تم تسليمه لشخص كان بانتظاره.

كان متحفزاً رغم ألم رأسه بسبب العصابة السميكة والمربوطة بقوة؛ أدخله الحارس إلى حجرة متوسطة وفك عصابة عينيه وتركه يجيل النظر في الحجرة.

من كومة البطانيات والفرش والمخلفات الملقاة في أرضية الحجرة عرف أن نزلاء سابقين قطنوها قبله.

ومن زجاج النافذة المتطاير في أنحاء الحجرة، والثقوب التي ملأت الجدران، وخزانة حديدية موضوعة في مقابل النافذة قد تلقت ضربة قوية، بدا كأن الغرفة تعرضت لهجوم ما.

التفت نحو الرجل وسأله بثبات؟

- أين أنا؟

فأجابه الحارس بلؤم:

- أنت في صالة استقبال "مريم" التي تؤيد قصفها بلدك.

فرد محمد بحدة:

- لعنة الله عليكم وعلى تحالفهم؛ كلكم تدمرون اليمن من الداخل والخارج.

فضحك الحارس بشماتة وهو يقول:

- لهذا أنت هنا. وخرج مغلقا الباب بقوة.

خلال أسبوع تشابهت فيه أيام المعتقل ظل محمد تحت قصف الطيران لذلك المكان.

تخلل الأسبوع وجود نزلاء جدد يأتون ويذهبون ليقيموا في نفس الحجرة.

كانت ميليشيا الحوثيين تلتقط معتقليها من بيوتهم أو الشوارع بتهمة الداعشية والنفاق التي ابتكروها كعذر يرددونه في أعلامهم.

كان أحد النزلاء رجلاً مسناً أطلقوا عليه الرصاص ثم اعتقلوه من المستشفى وجلبوه إلى الزنزانة في حالة يُرثى لها؛ إصابته فوق الكلى مباشرة و لم تتماثل للشفاء بعد فما زالت قسطرة البول معلقة بجسده مختلطة بالدم.

منذ وصوله وهو يتوجع حد البكاء من شدة ألمه حتى يبكي محمد لبكائه؛ كان قد أخبر محمد أن سبب اعتقاله هو مداهمتهم لمنزله بسبب بلاغ عن ذهاب ولده إلى مأرب ملتحقا بالمقاومة والجيش الوطني.

قضى الرجل المسن أياماً في الزنزانة مع محمد فريسة للحمى والألم ولطالما توسلا الحراس أن يعطوهما أي مسكنات أو مطهرات لجراحه، حتى تم أخذه ذات صباح ولا يدري محمد إلى أين أخذوه؟

وسكن الزنزانة معه أيضاً أخوان كانا يعملان مدرسين في إحدى المناطق البعيدة عن صنعاء تم اعتقالهما مع والدهما الذي بلغ من العمر عتياً.

كان أحد الأخوين مصاباً بخراج في رأسه ويحتاج إلى عملية جراحية لشفط السوائل كل فترة لهذا قدما إلى صنعاء مع والدهما. وفي إحدى النقاط الحوثية تم تفتيش سيارتهم ليجد أفراد المليشيا بحوزتهم مبلغاً من المال يغري بالسرقة؛ فالاستيلاء على أموال الآخرين كان نقطة ضعف المليشيا الجماعية.

تم مصادرة المبلغ كاملاً مع السيارة واعتُقل الأب المصاب بمرض القلب مع ولديه، ثم أطلق سراحهم وصودر مالهم وسيارتهم. وحين عادوا للمطالبة بها تم إدخالهم المعتقل الذي فيه بن معوضة.

وخلال أيام ساءت حالة الأب لعدم وجود الأدوية التي يعـــيش عليها فأطلقوا سراحه وأبقوا على ابنيه كي لا يطالبا بأموالهما المنهوبة.

في اليوم الثالث لوجود بن معوضة في زنزانته، عرف تحديداً أين هو من أحد المعتقلين في زنزانة أخرى قدموا به إلى نفس الزنزانة، فقد كان نزيلاً قديماً هنا.

إنه أحد المعسكرات الموجودة في صنعاء والذي أصـــبح هـــدفاً لقصف المليشيا ومعتقلاً للأبرياء، بعد أن كان مخزن أسلحة فقط.

***

في إحدى الليالي تم نقل محمد إلى غرفة أخرى تمهيداً للتحقيق معه؛ وبعد ساعة من دخوله الزنزانة أتى أحد الحراس وربط عينيه وأدخله غرفة التحقيقات؛ أجلسه على مقعد حديدي وأطبق عليه صمت الترقب قبل أن يأتي صوت المحقق سائلاً إياه؟

- ما سبب وجودك هنا؟
- سلمت نفسي طوعياً بعد اتهامي بالمشاركة بقتل أحد أقربائي ظلماً؛ والجميع يعلم أن لا علاقة لي بالأمر مطلقاً.

وكأن المحقق لم يسمع سأله بصرامة:

- قل الصدق.

فرد محمد بن معوضة بثبات:

- لقد قلت الصدق الذي يعلمه جميع أهالي القرية.

فصرخ المحقق:

- ستتعرض للصعق بالكهرباء الذي تنطق منه الأحجار ذاتها.

فرد محمد بإصرار أشد:

- افعلوا ما بدا لكم؛ أنا صرت بين أيديكم بمحض إرادتي وكان بإمكاني الهروب إلى أي مكان أو حتى إلى دولة قريبة منذ حدوث الجريمة وحتى تسليم نفسي.

لكن دفاعاته وتبريراته بدت كأنها تخصه وحده ولا تخص من يوجهون إليه الأسئلة؛ فقد أشار إليهم المحقق أن يقوموا بعملهم المعتاد.

أجلسوه على الأرض وأمروه أن يضع كفيه خلف ساقيه حتى تصل ركبتاه إلى ذقنه وربطوا يديه بقوة حتى صعب معه التقاط أنفاسه.

قاموا بتعليقه بقضيب حديدي يمر تحت ركبتيه ويديه؛ ظل رأسه يتدلى في ذلك الوضع المؤلم وهم ينهالون ضرباً عليه بسلك مظفور أُعد لهذا الغرض.

كانت الضربات تشمل جسده كله وتتركز على قدميه والمناطق الحساسة من جسده.

ولأكثر من أربع ساعات تناوبوا على ضربه وتعذيبه غاب فيها عن الوعي مرتين عمدوا فيها إلى إيقاظه بصب الماء على فتحتي أنفه وضرب رأسه بيداهم العسكرية ضرباً مركزاً.

أربع ساعات كان محمد يفيق ليتمنى الموت فقط..

أربع ساعات تمزق جلده وتمزقت إنسانيته تحت وقع أسئلة تستخف به كي يطول عذابه تحت وقع ضرباتهم الحاقدة..

كان قد بدأ يفقد إحساسه بما حوله حتى بضرباتهم التي انتزعت جلده؛ أنفاسه تتردد بصعوبة ورأسه المتدلي لساعات يكاد ينفجر من ضغط الدم.

حينها فقط تم إنزاله من حيث علقوه؛ وتركوه بنفس الوضعية مربوطاً تختلط دموع القهر بالدم.

لا يدري كم بقي على هذا الوضع فاقداً لوعيه والشعور بأطرافه، حتى أتى اثنان منهم وفكا رباط يديه وأوقفاه بصعوبة بالغة؛ غير قادر على ضم ساقيه لشدة الألم بينهما وقد عجزتا عن حمله لشدة تسلخ باطنهما..

أدخلاه الزنزانة ورميا به على الأرض جثة شبه حية..

بكى الأخوان شفقة عليه وعلى نفسيهما بعد أن شاهدا أثر التعذيب على كل جسده وصار شبح الاستدعاء للخروج من الزنزانة لا يعني إلا تعذيباً يكون الموت أرحم منه.

سيتذكر محمد أن نعمة الشعور بالشيء الحار أو البارد أو الخشن أو الناعم لن تعود إلى أطرافه إلا بعد ثمانية أشهر من اعتقاله.

ظل لثلاثة أيام في الزنزانة يعاني آلاماً مبرحة أنسته كل يوم جميل مرّ في حياته؛ صار التفكير بعائلته وقلقهم عليه أخف هذه الأوجاع، وكان الخوف ألا يلقاهم أكثر تعذيباً له.

ما كان يمرّ في خاطره أن تصبح حياة الناس بلا قيمة هكذا بغياب القانون وحق الإنسان في أن يثبت براءته وكرامته.

أن تتحكم بك وبحياتك ومصيرك عصابة إجرامية تدّعي سلطة القانون والحق الإلهي!!

ولا تجد من يوقفها عن ممارساتها ضد بشر لا يملكون لأنفسهم حولا ولا قوة.

تناوشته الحمى فكان يغيب عن الوعي ويهذي بأسماء أطفاله وكأنهم حوله، فإذا أفاق لم يجد سوى جدران الزنزانة التي انتشرت فيها الثقوب كعيون هؤلاء القتلة وهم يحدقون إلى عذابه وألمه بتشفٍّ وقسوة.

في اليوم الثالث فُتحت الزنزانة وتم اقتياده بعنف من بين الأخوين لنقله إلى زنزانة أخرى؛ لم يعد يهتم أين يذهبون به..

لقد وجد أقسى ما يمكن تخيله من معاملتهم.. والموت في هكذا ظرف يعد رحمة فقط.

تم أنزاله إلى قبو المعتقل؛ ذلك المكان الذي حوى أصـــناف الألم والتعذيب والإهانة.

كان القبو يمتلئ بالمعتقلين في زنازين انفرادية وجماعية.

كان يوم عيد وكانوا بانتظار قصف لصواريخ التحالف كهدية عيد كما أخبرهم المشرف الحوثي؛ لذا استقبله المعتقلون بالترحـــاب كهدية عيد مغايرة لما كانوا يترقبونها كل يوم بقلق لا يوصف.

هناك تفاجأ بوجود الشيخ "قاسم" الذي يكن له احتراماً شديداً؛ رجل ستيني عُرف بنبله وسيرته المشرفة في منطقته والمناطق المجـــاورة؛ كان يبكي من الداخل وهو يتعرف إلى المعتقلين..

- كرام الناس وشرفاؤهم هنا معتقلون وكل اللصوص والقتلة يسرحون ويمرحون في طول البلاد وعرضها!! ماذا حـــدث لهذا العالم الظالم؟!!

الشيخ القبلي سلّم نفسه طواعية أيضاً كي يجنب أبناء منطقته حرباً مع جماعة الحوثي قد تـــؤول إلى نهايـــات داميـــة في كـــل بيت.

كانت المليشيا، كدأبها المعتاد لفرض سلطتها ونفوذها الزاحف في أرجاء البلاد، قد أصرت على فتح مكتـــب يمثلـــها في تلـــك المنطقة وتعيين مشرف كان مسانداً لهم وهو الوحيد الذي استقبل حملتهم بالترحاب وقام بضيافتهم كي ينوب عن المليشيا في تلـــك النواحي. لكن أبناء المنطقة رفضوا جميعاً أي وجود يمثله مكتـــب للحوثيين.

حينها تم استدعاء الشيخ "قاسم" وحين وصل إليهم سألهم:

- ماذا تريدون من القرية وما المطلوب من حملتكم هذه؟

تجاهل المشرف الحوثي الشيخ تماماً إمعاناً في الإهانة فعاد الشيخ "قاسم" إلى منطقته مكروباً يعلم أنهم يعدون العدة لشن هجوم ترهيبي مباغت.

وبالفعل تفاجأ أبناء المنطقة في اليوم التالي بانتشار كثيف لمسلحي المليشيا ومحاصرة المنطقة بمختلف الأسلحة..

وحين وجد الشيخ "قاسم" أن اشتباكاً دموياً سيحصل مع لجوء أبناء المنطقة لأسلحتهم قرر أن يحقن الدماء ويعود إلى حملة الحوثيين عله يصل إلى تفاهم يرضي الطرفين.

لكنهم اعتقلوه فور وصوله وتم نقله من معتقل إلى آخر.

سأله محمد وقد نسي كل آلامه في وجه ذلك الانكسار على ملامح الشيخ:

- هل قاموا بتعذيبك شيخنا؟

هز الشيخ رأسه بأسى:

- جسدياً لا.. لكن ألم الإهانة والتعذيب النفسي أشد وجعاً يا محمد؛ إنه ألم يقتلك كل يوم ألف مرة ولا تموت.

يا الله.. نعم إنها الكرامة التي إذا مُسّت كانت عذاباً أبدياً.

ابتسم الشيخ في وجه محمد مواسياً وهو يرى عينيه تغالبان الدمع إشفاقاً على سنّه وسأله ضاحكاً:

- وأنت ماذا فعلوا بك؟ جراحك وخطواتك المتوجعة تقول الكثير؟

سرد محمد تفاصيل اعتقاله باستغراب مما جرى له، كمن يستعرض مشاهد خيالية من فلم شاهده وكان بطله الرئيسي.

حين سأل الشيخ محمداً عن تفاصيل اعتقاله لم يسأله عن السبب فأسباب الاعتقال لا تهم، فقد لا يكون هناك سبب يستحق أن تُعتقل وتُعذب لأجله كل هذا التعذيب.

فأحد المعتقلين الموجودين في القبو قصته أقرب للمزحة منها للحقيقة؛ فالرجل صاحب متجر متواضع في إحدى المدن كان ذاهباً إلى القرية لقضاء إجازة بسيارته المتهالكة؛ كان رجلاً محايداً ولا علاقة له بالسياسة أو الجماعات أياً كانت.

لكن حظه التعس جعله يقع فريسة للمليشيا في إحدى نقاط التفتيش حين استوقفوا سيارته لمعاينتها. لكن مكابح السيارة لم تستجب لضغطه المتكرر، فتجاوز النقطة بأمتار قليلة جعلت أفراد النقطة يتحولون إلى كلاب مسعورة ويهجمون على السيارة بأكملهم وبعد إهانة وضرب، وإصرار منه أن مكابح السيارة هي السبب في عدم توقفه، تم توجيه تهمة مساندته لتنظيم القاعدة، وإلهاء النقطة الأمنية حتى تمر سيارة تخص التنظيم، وهم مشغولون بملاحقة سيارة هذا التعس الذي اقتادوه ليقضي إجازته المرتقبة في معتقل المعسكر ذاته.

سائقو الحافلات أيضاً موجودون بين المعتقلين كمتهمين بنقل أشخاص للانضمام إلى المقاومة في مأرب.

ومجندون قدامى رسميون تكون مناطق خدمتهم خارج سيطرة الحوثيين، هؤلاء يعملون بوظائف في الدولة يتم اعتقالهم كأعداء لمجرد أنهم مجندون.

ازدحم المعتقل بكل أصناف الناس هنا من بائع القات وحتى الدكتور الجامعي وخطيب الجامع والمدرس والطالب.

ككل المعتقلين السياسيين لم يكن عليهم أي تهم ضد المجتمع، بل هم مواطنون صالحون وصحائف أعمالهم مشرفة. لكن جريمتهم معارضة الانقلاب، وهذه تكفي كي تلفق لهم التهم المختلفة بحسب الحاجة.

لم يكن هناك سوى اثنين من المعتقلين جنائياً أحدهما كان مشرفاً حوثياً قام بقتل أحد ضباطهم فأودعوه السجن دون أي تعذيب جسدي له أو حتى نفسي، رغم أنه كان يشتمهم في وجوههم، وكان يتهددهم قائلاً كلما نشبت بينهم معركة كلامية:

- أنتم من تصنعون الدواعش صناعة قسرية بأنفسكم؛ فمن يخرج من جحيمكم هذا ولو كان حمامة منتوفة الريش ثقوا أنه سينفجر في وجوهكم حمماً، أنتم من ملأ بها جوفه.

أما السجين الآخر فكان حوثياً أيضاً؛ لا يزال أقرب إلى سن الطفولة قتل زميله أثناء مشادة على الغنائم، وتم وضعه في زنزانة انفرادية كانت أفضل زنزانة موجودة في المعتقل. لكنه ظل يبكي طوال الليل فأخرجوه ليكون في زنزانة جماعية وهم يسخرون من بكائه، وأنه ليس رجلاً كفاية ليكون مجاهداً.

غير هذين الاثنين لم يكن أحد من المعتقلين يستحق البقاء في هذا الجوانتنامو المصغر ساعة واحدة تحت رعب قصف الطائرات وهم ينتظرون صاروخا يطبق السقف على أنفاسهم.

المعتقل يقع داخل ثكنة عسكرية ومخازن أسلحة ولهذا فهو أحد أهداف طيران التحالف.

وأبرز التهم الموجهة لكل المعتقلين هي التأييد لتدخل قوات التحالف، سواء كانوا من مؤيديه فعلاً أم ممن يرفضونه.

ويعد كل رافض لوجود المليشيا أو حليفها الـرئيس المخلـوع مؤيداً لتدخل التحالف في نظرهم. لذا يجدون موتهم بقصف الطيران ضرب عصفورين بحجر واحد.

التخلص منهم أولاً والتباكي عليهم واستغلال مصارعهم أمـام الرأي العام، كونهم ضحايا طيران التحالف في حين أنهم هم الـذين وضعوهم دروعاً بشرية معدة للقصف.

ومع قدوم الطيران كان السجانون يهربون جميعاً ويتحصنون في أماكن بعيدة عن المعتقل في خنادق آمنة أعـدوها لـذلك تـاركين إحساس الترقب المرعب للمعتقلين وهم يستمعون لصوت الطـائرة يكاد ينتزع قلوبهم من حلوقهم في كل تحليق قريب وقـد اخترقـت حاجز الصوت ففزعت أصواتهم بالدعاء والاستغفار.

في كل مرة يُسمع فيه تحليـق الطـائرات يحـاول الـبعض استرحام السجانين أو وعظهم بأن يخافوا الله من تعمد هذه الميتـة لمعتقلين أبرياء ويذكرونهم بحرمة الدماء. ويردون علـيهم بكـل كراهية:

- موتوا يا دواعش أنتم تستحقون هذه الميتة.

لكن رحمة الله، أو سخطه، هي التي جعلت ضربات الصـواريخ تقترب حد اقتراب الأرواح من حلوقهم ثم لا تصيبهم بغير ذلك الهلع الذي يفقد البعض صوابه.

كانت الضربات لا تبتعد عن المبنى سوى أمتار قليلـة فتتطـاير الشظايا على الجدران كعشرات القنابل الصغيرة مع امـتلاء المكـان بالغبار والحصى من فتحاته الضيقة والمرتفعة إلى حدود السقف والتي لا تزيد فتحتها عن 30–40 سم.

أحياناً كانوا يصطحبون بعض المعتقلين لتوزيعهم في أرجاء المعسكر – المعتقل لعل الطيران يصيبهم إن أخطأ آخرين منهم، وبعد كل قصف ينجو فيه المعتقلون كانوا يقولون لهم بغيظ:

– اطمئنوا فالعدوان المجرم لا يستهدف مرتزقته وأعوانه.

وحين كانوا يسألون الحراس وهم ينتقون البعض للخروج من القبو:

– إلى أين تذهبون بهم؟

فيردون بخبث:

– تم إطلاق سراحهم.

فيتبادلون التهاني بعضهم مع بعض ويكون وداعهم مؤثراً، ويحمّلون من أطلق منهم أمانة التواصل بأسر بقية المعتقلين وطمأنتهم على ذويهم، فأغلب الأسر لا تعرف أين معتقلهم ولماذا تم اعتقاله؟

كانوا يكتبون أرقام هواتف أقاربهم على قصاصات من أغلفة زجاجات الماء أو عُلب الأغذية يخبئونها في شقوق ثياب من اختير للخروج وأحياناً تكتب خلف ملابسه ذاتها.

ويقام احتفال على أمل أن تعرف تلك الأسر المكلومة أخيراً أين اختفى أبناؤها قسرياً فسيتحركون لإنقاذهم بلا شك.

لكنهم في النهاية يعرفون عبر معتقلين آخرين أن من احتفلوا بإطلاق سراحهم موجودون في المبنى ذاته في أماكن أخرى.

أحياناً كانوا يقولون إنه تم نقلهم إلى مبنى الأمن القومي لإثارة أكبر قدر من الرعب في قلوب المعتقلين على فرض أن ذلك المبنى يكون فيه تعذيب من نوع آخر.

رغم أنه لم يعد هناك فرق بين أساليب تعذيب الأمن القـــومي وكل المعتقلات العسكرية التي كان المعتقلون مغيبون فيها.

لقد كانوا يتعمدون وضع المعتقلين بعيدا في معتقلات هـــي في الأصل ثكنات عسكرية. والمعاملة فيها لا تختلف عن قـــبح الأمـــن القومي في سوئها وتوحشها.

في أحد الأيام أتوا بمعتقل جديد إنما بحراسة مشددة، وقد كبلوا يديه إلى الخلف بقوة حتى برز صدره النحيل. كان شـــاباً ذا لحيـــة خفيفة ونظرات فيها هدوء وسكينة رغم أن الدماء تنزف من بـــاطن قدميه وتملأ أرضية المعتقل مع كل خطوة.

أفرغوا له أسوأ الزنزانات الفردية وألقوه داخلها بجراحه ودمـــه وخاطبهم مشرف السجن:

- هذا إرهابـــي خطير ومن يحاول الحديث معه سأملأ بطنـــه بالرصاص.

ظل في تلك الزنزانة ما يقرب من الشهرين لم يكن يخرج إلا إلى دورة المياه تحت حراسة، مرتين في اليوم، ويدخلون إليه فتات الطعام من فتحة أسفل باب الزنزانة الثقيل دفعاً ليصل إليه كيفمـــا وصل.

بعض المعتقلين حاولوا الحديث معه في غفلة من الحراس وعرفوا أنه من الريف، وقد تم اعتقاله وهو في طريقه لزيارة أخته التي تســـكن المدينة بمناسبة العيد. وكان في أحد الأسواق الشعبية حينـــها لشـــراء بعض الأغراض كهدية، حين قُبض عليه على إثر شكوى كيدية بأنه أحد أبرز رجال حزب الإصلاح من قبل أحد أبناء قريتـــه، بســـبب عداوات أسرية بينهم.

كانت أكثر التهم التي تثير جنون المليشيا هي الانتماء إلى هـــذا الحزب، ولهذا لم تأخذهم شفقة بهذا المعتقل الذي كانوا يتنقلون بـــه بين زنزانته وحجرة التحقيق التي تحولت إلى حجرة التعذيب. فقـــد كان يخرج منها محمولاً لشدة ما لاقاه في ساعات تمر كالأعوام.

ومن شقوق زنزانته كان يصبِّر المعتقلين كلما أتوا للحديث معه ويحدثهم عن الأمل بالفرج والثقة برحمة الله.

يتناهى صدى صوته بقراءة القرآن خارج ظلمة الزنزانة فتنشرح الصدور خارجها ثقة برحمة الله وقدرته التي تعلو كل قدرة.

قضى أياماً أخرى بعد تعرفهم إليه حتى أتى صباح أخذوه مـــن زنزانته و لم يعد بعدها. وتردد أنه تم نقله إلى الســـجن المركـــزي في صنعاء من أجل صفقة تبادل أسرى.

***

بين ساعات التعذيب التي تنهش أجسادهم أو تلك المعاملة المهينة التي تقضي على الإنسان، روحاً وعقلاً، تمر أيام الاعتقال وفيها يتجدد الرعب والألم والتعذيب، ومخاطر أقلها وأهونها انعدام النظافة لقطع الماء عمداً عن السجناء. فقد كان يسمح بوجود الماء لفترات محدودة في الأسبوع، ومهما تم تعبئة أوانٍ للاحتفاظ بالماء إلا أن استخدامه يظل قاصراً على الحمام والضرورة القصوى.

أما الاستحمام فكان بمثابة الحلم وعواقبه وخيمة، فقد يضطر المستحم إلى عذاب مسح أرضية المعتقل بجسده عقاباً له.

المعتقل جزء من جهنم فحتى لو لم تعذب، تكون أصوات التعذيب في غرفة التحقيق عذاباً كافياً. حينها تخفق في الحلق تماماً.

كانوا يتعمدون ألا يغلق ملف التحقيق لأي معتقل حتى يظل رعب الاستدعاء إلى مكتب التعذيب أرق الليل والنهار.

وفي حالات نادرة يتم إغلاق ملف التحقيق حين يبصم المعتقل على اعترافات لا يدري ما هي أصلاً، ويكون لون حبر البصمة أحمر.

أصبح رؤية الحبر الأحمر على الأصبع يستحق التهنئة والاحتفال؛ حتى لو كانت البصمة على اعتراف يؤدي لقطع العنق.

محمد بن معوضة كان من أولئك الذين بقي ملف التحقيق خاصتهم مفتوحاً إلى ما نهاية ليظل قلق الاستدعاء شبحاً يلاحق خياله في كل حين؛ ليس قلقاً من التعذيب الجسدي بقدر ألم العذاب الحاصل من الإهانة وكسر النفس.

لقد حولوا أوقات المعتقل إلى عذاب دائم حتى سماع الزوامل التي تتوعد الدواعش والمرتزقة بالقتل والتنكيل، ويُقصد بهم المعتقلون، وما في تلك الزوامل من إهانات ووصف الخيانة والنقائص وتعمد بثها بأعلى مستوى للصوت في كل وقت كجزء من التعذيب..

وتلك الدروس التي تلقى من ملازم السيد بشكل شبه يومي كانت عذاباً عقلياً آخر.

حتى أسراب البعوض التي حولت أجسادهم طوال الليل إلى موائد عامرة بدم الجروح والتعذيب كأنها كانت جزءاً من هذا التعذيب.

أحياناً كان يُسمح للمعتقلين بشراء الأشياء الضرورية كالدواء وبطاريات الكهرباء اليدوية، فقد كان المعتقل معتماً نهاراً، أما الليل فحالك الظلمة.

كان مسؤول السجن هو من يكتب قائمة الطلبات ويشتريها بنفسه من أجل المبلغ الكبير الذي يقتطعه في النهاية من كل سجين قد يصل إلى أكثر من النصف.

وكثيراً ما كانت نقود المعتقل تنتهي ولا يجد ما يصرف على نفسه لو احتاج شيئاً ضرورياً، فتظهر صور التراحم والتكاتف في هكذا مواقف. فأي سجين جديد يكون لديه مبلغ مالي يصرف على نفسه وعلى غيره من المعتقلين، هذا إن نجا أي مبلغ من أيديهم و لم يستولِ عليه السجانون.

قبل الإفراج عن محمد بفترة وجيزة وصل إلى المعتقل ضيف جديد يبدو من الاهتمام المهلك الذي لاقاه أنه صيد ثمين في عيون

مليشيا الحوثي. فقد استقبل بكل أنواع السباب المقذع واحتفلوا به في حجرة التعذيب فور وصوله لساعات أطول. في البداية لم يكن هناك سوى تأوهاته الخافتة، ثم علا صوته بالصراخ حتى انسكبت الـــدموع من بعض المعتقلين.

وبعد ساعات تعذب فيها من هم خارج حجرة التعذيب كما لو أنهم داخلها وعلى ظهورهم وقع السياط؛ سُحل جسد الرجـــل إلى أضيق الزنزانات وأوصد عليه الباب مع التهديد للجميع بعدم التعاطي معه بحديث وإلا فالعقاب سيكون نثراً للكروش كالعادة.

سبق أن جاء ذلك الشاب الريفي وكانت نفس التعليمـــات.. وكان أن تدبروا حديثاً معه.

لكن التعذيب المتواصل والوحشي ضد هذا النزيل الجديد كـــان مروعا بحق؛ لذا ما أن سنحت فرصة للحديث معه من خلف بـــاب الزنزانة الحديدي حتى قفز الشيخ قاسم يسأله بعطف شديد:

- أنت يا أخي ما قصتك؟ ولماذا يصبون حمم حقدهم عليـــك بهذه الصورة؟

فرد صوته الخفيض من التعب:

- اسمي "أحمد النويرة". وتنهد بحرقة حتى ارتجت صدور مـــن كان ملتصقاً بالباب الحديدي يلتقطون كلماتـــه الواهنـــة. جرمي أني أحمل كل الصفات التي يكرهونها؛ فأنا من حزب الإصلاح وأنا من تعز وأنا جمهوري ضد الإمامة. اقتحمـــوني بمساعدة عدد من الصحفيين الأحرار على الفرار من مدينة صنعاء التي حولوها إلى مستنقع آسن لطغيـــانهم. لقـــد تم تهريبهم إلى مأرب حيث حلم الدولة المدنية الحرة.

كان يلفظ كلماته بمشقة، فحاول الشيخ قاسم أن يوقفه رفقاً بما تبقى من قوته؛ لكنه أصر أن يسرد مشاهد من حياته وكأنه يسترجعها رغماً عنه:

- لديّ زوجة وطفلان صغيران أعدتهما إلى ريف تعز؛ رهف ورعد؛ لا أدري هل هما في أمانٍ كافٍ هناك، وهل سيُكتب لي أن أراهما في يومٍ ما. لديّ أصدقاء رائعون لكنهم تقريباً تشتتوا في أرض الله والبعض جمعتهم مأرب الخير.

لست نادماً أو آسفاً على كل ما فعلت من أجل أصدقائي ووطني وإذا كان هناك من ندم هو أنني لم أحمل السلاح في وجوه هؤلاء المسوخ؛ فكل فكر لا تحميه قوة باطشة ستقضي عليه أقدام الجهل.

***

في جوف الليل سمع الجميع الباب الحديدي لزنزانة "أحمد النويرة" يفتح بقوة ويضرب إلى الحائط بقوة أشد؛ ليس مستغرباً إفزاع النائمين بالأصوات العالية أو ضرب بوابات الزنازين؛ وليس بمستغرب في جحيم الأرض أن ينتزع المعتقل إلى حجرة التعذيب في أي ساعة من الليل. لكن قلوب جميع المعتقلين اشرأبت في قلق ونفضت النعاس فلا مجال للنوم مع أصوات الألم القادم.

صوت سحل أحمد النويرة بات مميزاً للجميع فقلوبهم جميعاً تنسحب خلف جسده الدامي في كل مرة.

وما هي إلا لحظات حتى بدأ حفل الكلاب المسعورة حول جسده المنتهي.

وقبل الفجر بقليل أعيد مشوار السحل لكنه توقف في الباحة التي تُفتح عليها جميع الزنزانات. وهناك تُرك جسد أحمد النويرة يلفظ آخر أنفاسه غارقاً في دمائه وكسوره دون أن يحاول السجانون إسعافه أو إنقاذه، على الأقل كي يستمروا في تعذيبه بحجة استجوابه.

رموه كخرقة مبتلة بالدماء، حاولوا كثيراً قراءة طلاسم الصبر فيها لكنهم جاهلون؛ لقد مزقوا فيه ما استطاعوا أما الروح فترتقي نقية نحو خالقها وعند الله تجتمع الخصوم.

اندفع عدد من المعتقلين نحو الجثة التي ترتعش في انتفاضاتها الأخيرة وألسنتهم تدعو وتئن من وجعه؛ احتضن الشيخ قاسم رأسه النازف وهو يهمس:

- أنت بخير يا ولدي؛ تماسك أعانك الله.

فيما اندفع آخرون يدقون البوابة الكبيرة مطالبين بإسعاف الرجل الذي يحتضر دون أن يلاقوا استجابة أو مساعدة.

عاد الشيخ قاسم يهتف في أذن أحمد:

- أحمد.. تمالك نفسك من أجل من ينتظرك في تعز؛ رهف ورعد.

فتح أحمد النويرة عينيه بصعوبة وقد لوثتهما الدماء وكأن ذكر الاسمين الصغيرين انتزع ما تبقى فيه من شعور بالحياة وهو يحشرج:

- "وحيد الأمير ".. وحيد صديقي الصحفي من مدينة إب؛ نزح إلى مأرب؛ أخبروه أن يكفل أبنائي وألا يتركهم؛ أوصيكم أن تخبروا "وحيد" هو صديقي الأقرب.

وشملت جسده رعدة جعلته ينتفض انتفاضات متلاحقة فينقطع صوته ويصدر عنه أنين متحشرج.

حاول محمد معوضة ومن بجانبه أن يضموا جسده المنتفض بالبطانيات أو يضمدوا جراحاته بمزق الأقمشة؛ لكن كسور العظم وتشوهات التواء ساقيه وذراعيه أعجزتهم عن أي تصرف.

مع أول خيوط الفجر كانت حياة أحمد النويرة قد انطفأت تماماً بعد أن فاضت روحه المشتعلة بالحرية.

***

في الصباح دخل السجانون وحملوا جثمان "أحمد النويرة" ملفوفا بذات البطانية التي حاول رفاق المعتقل أن يدفئوا بها جسده المرتعش من شدة الألم فكانت كفناً له في النهاية..

علا الوجوم والحزن كل المعتقلين؛ لقد حفر موت هذا الشاب ألماً في نفوسهم رغم كثرة الراحلين ورغم أن الموت يتهددهم كل لحظة تحت التعذيب أو تحت أنقاض المعتقل حين تضربه صواريخ التحالف.

الشيخ قاسم كان أكثرهم حزناً يشاطره بن معوضة ذات الحزن والوصية.

قطع الوجوم بينهما هامساً:

- كلانا يحمل في عنقه دين وصية هذا الرجل يا محمد، فإن خرجت أولاً عليك أن تحرص أن تصل إلى المدعو "وحيد الأمير" في مأرب وتخبره بوصية صديقه والأمانة التي تركها على عاتقه؛ وإن خرجت أنا سيكون هذا أول ما أفعله لأني سأنقل رحالي إلى مأرب إن كتب الله لي عمراً.
- بإذن الله يا شيخ قاسم يكون لك فرج الخروج من هنا أولاً، وتخبرني بما يجد عليك إن كتب الله لي خروجاً وعمراً جديداً.

ولعلها خطوات القدر الرحيمة فعند المساء تم الإفراج المفاجئ عن الشيخ قاسم، فلم يتمكن المعتقلون من كتابة قصاصات التواصي

المعتادة أو حتى الاحتفال بخروج الشيخ المسن بما يليق بصبره وأبوتـــه للجميع.

اعتنقه بن معوضة بفرح شديد وهو يقول:

- من رقبتي إلى رقبتك يا شيخ قاسم وصية "أحمد النويرة" ولا تنسَ أن تطمئن أهلنا وتدعو لنا بالسلامة والفرج.

***

(3)

حزن البعض كأعمارهم

يكبر كل يوم إنما لا يشيخ

يموتون.. فيوسدهم القبر.

أحمد.. أحمد النويرة.. إني أراك تقترب مني يا صديقي وأنا في هذه الحفرة المظلمة؟!!

ما زلت تقطر ياقوتاً أحمر؛ تجلس على حافة الحفرة مادّاً كفاً مخضبةً بالحناء القاني وتتحسس نبض صدري؛ وتهمس في أذني:

- قم يا وحيد، أنا أحتاج لمعونتك هذه المرة؛ أحتاج أن تخرجني من هذا الجحيم.

إنهم يزرعون في كل خلية من جسدي ألماً مميتاً ولا أموت. ليست سياطهم تلك التي تنهش لحمي، إنه حقد عجيب؛ اللحم يتناثر مع الصديد مع كل جولة تعذيب، وكل تلك الحمّى التي تعقبه تسقط عني الشعور بالمزيد من التفتت؛ أنا ألتحم بتراب الزنزانة قبل الموت.

انظر يا وحيد ماذا تبقّى من أطرافي؛ لقد انتزعوا أظافري واحداً تلو الآخر، تلك الأظافر التي كنت تصر على أن قصها من الفطرة السليمة. لقد نزعوها بفطرة حيوانية وحشية.

لم أعد قادراً على الوقوف يا صديقي فقد حطموا ساقيّ بهراواتهم فأين كتفك تسندني حتى ينتهوا مني؟

حتى أنهم لا يرغبون أن ينتهوا مني!!

يريدون أسماء كثيرة لم تعد هنا؛ الكثير منها قد قُتل أو هرب قبل أن تصل كلابهم إليه.

لكنهم سيلتقون بهم حيث لا صوت يعلو فوق صوت الرصاص والانتقام.

سألوا عنك يا وحيد.. وقالوا لي أين تخفي صاحبك اللعين؟

فأين أنت أيها الوغد العزيز؟ لماذا لا تعود كعادتك؟ لقد سبق أن واجهت الموت مرتين وعدت إلينا.

- أحمد.. أحمد.. أحمد يا صديقي لم يعد لدي حتى صوت كي أجيبك؛ هل تسمعني؟

آه يا عجزي الذي يبدو كجبال بلادي ثابتاً لا تنتهي سلاسله إلا إلى صحراء عجزي الكبير. أنت يا منقذي الدائم كيف تستجير بي؟ كيف تطلب مني عوناً وأنا الذي كنت سبباً في أسرك لطول ما ساعدتني..

هذا الجسد صار قيداً يُضاف إلى قيودي يا أحمد، أنا هو الأسير في وطن أسير..

لطالما كان هذا الجسد عائقاً للروح..

قد يخيّب أمل روحك الجميلة تشوّهٌ ما في هذا الجسد فتتعثر به حزناً كل العمر..

قد تظل روحك شابة طيلة عمرك، لكن جسدك يخذلك فيتقدم في العمر سريعاً..

قد تتمنى روحك ما يفوق قدرات جسدك وما يؤهله أضعافاً، فتلاحقك الحسرة كظلك..

وقد تتوق روحك إلى دفء الشمس لكن هذا الجسد يخذلك بلسع حروقها حين تتوهج كأجمل ما يكون..

قد تعبر روحك كل حدود ويظل جسدك بين جدران أربعة ومع ذلك يردها إلى الحفرة مرغمة..

قد تخاطبك روحي، وجسدي مسجون في العجز.. أنا عاجز بي يا أحمد.

هل ترى كم أن هذا الجسد عائق يا صديقي؟!!

***

عفراء

حبيبـــي وحيد..

حين أرسلت لك رسالتي الأخيرة: أنا في عدن يـــا وحيـــد فهل أراك؟ لم تجب؛ فخمنت أن الأمر كعادتك حين لا تعـــرف الإجابة. لكنك كنت تعرف هذه المرة وتنوي فعلا ألا تأتي حـــتى كذباً.

عدت إلى عدن من أجل أبـــي الذي تمـــنى أن تكـــون أيامـــه الأخيرة في وطنه ومدينته التي يعشق؛ لم يرغب أن يموت في الشـــتات كما عاش فيه.

لقد مات أبـــي.. مات الرجل الذي كنت أثـــق أن لا شـــيء سيحرمني حنانه ووجوده قربـــي سوى الموت؛ مات الرجل الـــذي أحبني حقيقة منذ ولدت وحتى غاب.

تمنيت أن آتي إليك حيث أنت وأكون قربك في محنتك؛ لكـــنني بقيت في عدن كي أهتم بأبـــي في مرضه؛ أنا عكاز والديّ الذي لا يفارقهما.

مات أبـــي الذي عشق وطنه حتى توسّل للموت أن يمهله كي يعود إليه ويحيا فيه يوماً واحداً يتنفس هواؤه ويراقب أمـــواج بحـــره. لكن الموت لا يتأخر عن موعده. وها أنا أترك أبـــي جثـــة تلـــتحم بأرض الوطن الذي أحب.

عدن التي عادت تحت الوصاية مجدداً لم تكبر كفاية كي تتحمل قرارها فتناقلتها الأيدي كي تدير شئونها كما تشتهي تلك الأيدي لا كما تشتهي عدن.

احتلال مبطن بالإنقاذ وعمليات قتل لا يذهب ضحيتها إلا من أنقذ عدن في حربها.

الجو فيها خانق يتربص الخوف والقلق في أزقة المدينة التي هتكت حوادث الاغتيال غلالة الجمال والأمان فيها.

كل شيء يوحي بالضيق في نفسي حتى تلك النافذة الواسعة، التي تبتلع نصف المدينة وجزءاً هائلاً من السماء، لا تكفي لالتقاط نفس واحد نقي يملأ صدري..

كل الهواء الذي يصلني عبرها يكون مزدحماً بالتأوهات واللعنات والكثير من الدموع التي أخفاها أصحابها فنشرتها الريح كاشفة الأسرار..

أحب النوافذ الواسعة وأتمناها عوضاً عن الجدران الأربعة؛ حتى أني أريدها سقفاً أيضاً. لكن النوافذ لا تصبح سقوفاً، و لم تعد تطل إلا على الحزن.

يمكننا أن نخرج رؤوسنا من نافذة محطمة؛ لكن السقف سيهشم هذه الرؤوس لو سقط محطماً بقصف الأصدقاء.

في هكذا حال قد يمرّ على الإنسان حين من الشعور بأنه وصل إلى عنق الزجاجة اختناقاً.

فإما أن يخرج من هذا الاختناق وإما أن يهوي إلى نقطة البداية..

وهذا ليس المهم..

المهم هل لديه النية في الصعود مجدداً للمحاولة كمرة أخيرة كما يقول لنفسه كل مرة؟

أم يصل إلى القاع ميتاً من الإحباط، لا يتنفس.

آه ما أكثر الخواطر التي تجيّش الحزن في القلب!!

هي الأفكار التي تحزننا وتهرس قلوبنا المنهكة من ثقل الوجـــع؛ يجب أن نصرفها جانباً؛ نضعها بعيداً كالخرق القديمة مثل ثيابنا المهترئة التي لا تستر عورات أجسادنا.

هكذا الأفكار الحزينة تعري ضعف أرواحنا فنبكي في خـــوف وصمت.

كم حاولت أن آتي إليك لكن ألف سبب يحتجزني فأخاف من العواقب وما يُقال.

ما أكثر الأمور التي يقنعونك منذ الصغر أنها لا تحق لك؛

ويمضي العمر وأنت واقف على أبواب الأمنيات تخشى اقترافها.

***

(4)

من لا يشعر بوجع الناس حين يصرخون ألمـًا

لن يصيح معهم..

حاتم

"لا شيء عادل البتة؛ فحين تتحطم السفن يغرق الضعفاء والعاجزون عن التشبث بالحطام، وينجو الأقوياء والحقراء ليجدوا فرصة للبكاء على الضحايا بأنهم كانوا رائعين لولا حظهم العاثر في الحياة.. الحياة التي تعتصر الجبل حتى تحيله إلى كومة تراب".

يحدث "طالب" نفسه بصوت مسموع؛ فمنذ ترك قاعات المحاضرات مع انقطاع أجور المعلمين ودكاترة الجامعات في موجة إضراب يرفضها ضميره. إنما لا حل غيره مع بداية عام دراسي بلا أجور..

فمنذ متى يؤدي الجائع ومسلوب الإرادة والحق عملاً متقناً؟!!

نعم ترك قاعات المحاضرات وصار يلقي على نفسه كل ما تعلمه طيلة حياته من معاني القيم، فربما تساعده على الصمود في وجه الحياة الشرسة.

تنقل في مهن كثيرة مثيرة للشفقة حتى يعيل أسرته الكبيرة؛ وأخيراً استقر على صندوق في أحد شوارع العاصمة صنعاء يصلح الساعات للمارة بأجر زهيد؛ وكلما أمسك ساعة بين أصابعه تمنى لو استطاع أن يدير عقاربها إلى الوراء قبل أن يجتاح مغول المليشيا البلاد وتنفجر فيها حرب لا تفرق بين الضحية والجلاد؛ أو يتمنى لو أدار عقاربها إلى الأمام كي يرى هل سيتغير هذا الحال المزري يوماً إلى الأفضل؟

هل ستفتح المدارس في هذا الوطن الذي يربض تحت أطنان الجهل؟ هل سيعود ابنه "حاتم" لإكمال دراسته الثانوية؟

(يا إلهي إنه وحيدي بين خمس بنات. كم أتمناه أن يتعلم ويصبح رجلاً يمنحني السعادة بنجاحاته).

لقد بدأ العام الدراسي في مناطق من اليمن وفتحت المدارس الخاصة أبوابها وأغلقت مدارس التعليم الحكومي في وجه الفقراء كي يتجهوا إلى جبهات القتال فلا وقت للتعليم أو الحياة.

هذا ما تدعو إليه قيادات المليشيا بكل وضوح؛ فليتوجه الطلاب مع معلميهم إلى ساحات القتال وليس إلى المدارس والجامعات.

هذا الوضع الشاذ جعل "حاتم" يصر على مساندة أبيه في كسب الرزق الذي شحّ كثيرا على الفقراء ومن كان ميسور الحال؛ واقتنع الأب أن يبقى قربه يبيع للمارة البيض المسلوق مع الفلفل المطحون كإحدى أكلات الشوارع في اليمن التي يترزّق منها الكثيرون.

يكفي "طالب" أن ولده تحت بصره طوال النهار وفي آخره يعودا معاً بما جاد به الحال.

قانع قلب الأب رغم بؤس الحياة، ولكن القدر يكون أحياناً أكثر قسوة بتصريفه لشؤوننا؛ وعلى الرصيف الذي يعد منطقة آمنة للسير تقع أقسى حوادث الصدام.

أحد "أطقم الميليشيا" المجنونة كالعادة يقفز على الرصيف ليهرس ساقي "طالب" ويحولهما إلى شيء واحد مع الصندوق المعدني الذي أمامه؛ وليبدأ فصل أشد معاناة ووجعاً مع الإعاقة والألم وعجز الفقر.

***

فتح "حاتم" ابن الخامسة عشرة عينيه على مسؤولية ينوء تحت ثقلها أعتى الرجال في ظرف اقتصادي أقل ما يوصف بالمروع؛ فوالده الذي أصبح فجأة قعيداً عاجز عن الحركة وطلب الرزق يحتاج إلى مقعد متحرك كأدنى ما يمكن لكي يخرج ويمارس إصلاح الساعات.

لقد أثقلت معالجته كاهل الأسرة بالديون وبيع كل ما هو ثمين، وعجزت الأسرة في النهاية عن شراء مقعد متحرك، فظل طالب حبيس زاوية الحجرة يذوي حزناً وحسرة وألماً على طفله الذي تحمل مسؤولية إعالة الأسرة بدلاً من الالتحاق بالتعليم الثانوي.

جالساً على الرصيف مطأطئ الرأس من ثقل الهموم يلمح عاقل حارتهم "قايد" يترجل من سيارته ويسير بخيلاء على الرصيف المقابل؛ "قايد" رجل وغد كما يقول أبوه. وغد فعلاً؛ فقد منحه المشرف الحوثي سيارة بحالة جيدة لأنه يرفد جبهة القتال بالكثير من الشباب في المنطقة كلها؛ ووغد أكثر لأن أبناءه يدرسون خارج البلاد فيما هو يسوق أبناء الفقراء إلى الموت.

وكأن "قايد" استشعر نظرات "حاتم" فتوقف برهة يحدق إليه ملياً قبل أن يتوجه نحوه بخطوات ثابتة كمن يعرف هدفه:

- كيف حالك يا حاتم يا بني؟ وكيف أبوك؟

انتصب "حاتم" واقفاً بتأدب وهو يقول:

- بخير يا عم قايد.. وأبـــي كما هو في ركن الحجرة عـــاجز عن الحركة.
- هل تحتاجون إلى أي شيء يا بني؟ قل لا تخجل أنا كأبيـــك تماماً؟

فكر "حاتم"؛ شتان ما بينك وبين أبـــي.. فأبـــي أستاذ جامعي هدّه الفقر والحاجة وأنت الجاهل لديك كل شيء.

- حاتم هل تسمعني يا ولد؟ قلت لك هل تحتاج مالاً؟
- لا يا عم قايد.. نحتاج مقعداً متحركاً لأبـــي.. لو تعـــرف أحد المحسنين يعطيه لنا كي يساعدني أبـــي في العمل.

ابتسم "قايد" بوداعة وهو يقول:

- هذا واجب عليّ وأكثر يا حاتم؛ وزيادة عليه راتب أيضاً من "أنصار الله".
- راتب؟!! كيف ومقابل ماذا؟ سأعمل أي عمل تطلبه مني.
- لا، لا.. فقط نسجل أسمك كمجند وتستلم راتباً وأنـــت مرتاح في بيتك.

دق ناقوس الخطر في رأس "حاتم" وتذكر تحذيرات والده حول "قايد" عاقل الحارة الوغد.

- كيف يا عم قايد أسجل مجند في البيت؟

أطلق قايد ضحكة ممجوجة وهو يقول بلطف زائد:

- كثيرون يفعلون هكذا ببساطة.. نذهب أنا وأنت لنســـجل اسمك لدى المشرف في المعسكر كأحد مجندي أنصار الله ثم تعود إلى بيتك؛ ولا داعي حتى لإخبار أبيك فعودتنا سريعة ونشتري له مقعداً متحركاً في طريق عودتنا.

فكر "حاتم" كون الفكرة مغرية.. لن يرغمه أحد على الذهاب إلى أبعد من صنعاء وسيعود محملاً بأمنية أبيه التي تعـــادل أمنيتـــه أن يكمل حاتم تعليمه.

- حسناً يا عم "قايد" على أن نعود ظهراً حتى لا يقلق أبـــي وأمي.

احتار في طبق البيض الذي ما زال مليئاً بين يديه فطلـــب مـــن عاقل الحارة أن ينتظره حتى يضعه لدى صاحب البقالة القريب مـــن الرصيف الذي يجلس عليه عادة.

وحين عاد وجد عاقل الحارة ينتظره داخل السيارة؛ أشار إليه أن يصعد وانطلق على الفور.

***

في معسكر داخل صنعاء، لا يعرف "حاتم" حتى اسمه أو موقعه، وجد الكثير مثله وفي سنه هناك يقفون تحت أشعة الشمس في الحوش الواسع، بانتظار تسجيل أسمائهم في كشوفات يكتبها شخصان، كلٌ منهما على طاولة في ركن في الحوش.

كانت الزوامل الحماسية تصدح في أرجاء المعسكر بصوت عال يجعل الدماء تغلي في العروق؛ لا يدري هل هذا بفعل حرارة الشمس أم الحماسة التي تبثها فيهم تلك الزوامل.

وبعد نحو ساعة وقف فيهم شخص بدين تدلى كرشه أمامه وأخذ يخطب في الجمع عن الجهاد في سبيل الله ويدعو للسيد ابن رسول الله الذي سيطهر اليمن من اليهود والأمريكان.

وجلجلت الساحة بالصرخة المقدسة.

وقف "حاتم" مبهور الأنفاس من صدى حماسة المحيطين به وهم يرددون صرخة الشعار؛ الجو مشحون بالصراخ والزوامل.

لم يعد قايد يُرى بين الذين يحيطون به، أين اختفى ومتى؟.!!

لكزه أحدهم بقسوة حين لاحظ أنه لا يردد شعار الصرخة وحدجه بنظرة غاضبة في استنكار؛ فما كان عليه إلا أن رفع صوته مردداً لها بخوف.

لم يعد يسمع ما يُقال حوله أو يعرف كيف يتصرف؛ هل يخبرهم أنه يريد العودة إلى البيت حيث تنتظره أمه على الغداء؟

سيسخر منه كل هؤلاء الصغار الذين يتصرفون كالرجال..

وصلت صناديق يحملها بعض الرجال وخلال دقائق وجد نفسه يحمل سلاحاً بين يديه، بل عتاد لا يعرفه أو سبق أن أمسك مثله قبلاً.. هل يرفضه ويطلب منهم أن يتركوه كي يعود إلى بيته حيث تنتظره أمه؟!

سيسخرون منه.. لن يبدو رجلاً مثلهم أبداً؛ سيرونه كالنساء يخاف السلاح..

تم توزيعهم إلى مجموعات؛ كل مجموعة تتكون من سبعة إلى تسعة أشخاص؛ اختلط فيها صغار السن بالكبار؛ كل مجموعة استقلت إحدى السيارات المكشوفة والمرصوصة في الحوش؛ وجد نفسه مدفوعاً بأيديهم يعتلي السيارة محملاً بسلاحه الثقيل؛ زائغ النظرات يدرك أنه وقع في فخ "قايد" فهل يبكي كالأطفال رافضاً هذا المصير؟!!

لا لن يبكي.. همس لنفسه مخنوق العبرة.. أنا رجل.

وسأعود إلى أبي بمقعد متحرك.. ولن أقاتل.. ولن أموت.

سقطت دموعه رغماً عنه فمسحها بكم قميصه المهترئ بينما كانت السيارة تنطلق مسرعة على وقع هتافات الشعار ونواح الزوامل.

***

في أول استراحة لقافلة السيارات لم يُسمح لأحد بالنزول منها. جلب المشرفون أكياساً بلاستكية فيها الرز والإدام والخبز وتحلقت كل مجموعة في صندوق السيارة بمشقة وحين سأل أحد المجندين:

- لماذا لا ننزل لنأكل على الأرض.

أجابه المشرف: لا وقت لدينا للراحة.

وبعد ساعات منهكة غافل النعاس فيها "حاتم" مرات وصل الموكب إلى معسكر آخر تناثر على ساحته كثير من الشباب اليافع الذي يبدو من حركتهم أنهم يتعلمون استخدام السلاح كما يتلقون تدريبات عسكرية.

أدخلوهم إلى قاعة واسعة وكالعادة أصوات الزوامل تصدح بقوة وأشخاص قد وقفوا في صف طويل للترحيب بالمجاهدين الجدد. وجد نفسه يصافح أشخاصاً كثيرين لكنه تماسك كي يبدو رجلاً ولا يخذل نفسه بمخاوفه.

وقعت نظراته المتجولة في المكان على ولد في مثل عمره؛ نظراته تحمل ذات القلق والخوف وإن حاول أن يتجلّد ويضحك لنكات يطلقها الكبار قد لا يفهمها..

حتى أنه وضع في فمه كتلة من البردقان الأبيض مقلداً لهم في حماسة واضحة التصنع.

اقترب "حاتم" منه وقد شعر أن بينهم رباط الخوف الذي يجمع القلوب حين الخطر.

سأله بعد برهة صمت نكس كلاهما رأسه خوفاً من مجابهة الاعتراف بهذا الخوف:

- ما اسمك؟
- أنور.
- أنا "حاتم". من أين أنت؟
- من الحدأ من ذمار. وأنت؟
- من صنعاء. لماذا أتيت إلى هنا؟

أطلق "أنور" ضحكة حاول جاهداً أن تبدو أكبر من ضحكة طفل:

- كي نقاتل الدواعش وإسرائيل وأمريكا.. والسعودية.
- كل هؤلاء سنقاتلهم نحن؟
- نعم. السيد قال: **﴿... كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً...﴾**.
- أنا لم آتِ إلى هنا بإرادتي؛ لقد أخذني عاقل الحارة بخدعة حقيرة؛ أبي كان يقول إنه وغد وهو وغد فعلاً.

تنهد "أنور" بضيق وهو يقول:

- أنا أيضاً أتيت لأن كل الشباب في منطقتي ذهبوا للقتال؛ الكثير من أسرتي ذهبوا وعادوا وأحياناً لا يعودون؛ كان يجب أن أذهب ولو لمرة واحدة؛ إنهم يسخرون مني؛ يقولون إنني ابن امرأة.. أبي توفي وعمي جعل أولاده كلهم جنوداً في أنصار الله.
- هؤلاء أنصار الموت والسرقة..

- اسكت يا غبـــي، سيقتلونك لو سمعوا وصفك هذا. أنـــت لم تتلقّ دروساً بعد من ملازم السيد. كنت ســـتفهم أننـــا نجاهد مع ربـــي؛ وكل ما نستولي عليه من بيوت المنافقين وجيوبهم هو لنا غنيمة وليس سرقة؛ كل شيء ملك للسيد وأتباعه وحق لهم علينا نحن أن نسترده فقط؛ ومع ذلك أنـــا أيضاً لا أريد أن أقاتل ولا أريد أن أموت؛ لنـــدعُ الله أن لا يدفعوا بنا للمواجهة في مقدمة الصفوف كما يفعلون دائماً بصغار الحطب.
- إنهم لصوص.. يسرقون كل شيء في طريقهم ويتـــاجرون بكل شيء حتى أرواحنا؛ لقد سرقوني من أهلـــي.. ألـــيس خطفي بهذه الطريقة سرقة؟
- كل شيء فداء للسيد.. أنا وأنت وما نملك.. هذه حقيقـــة يجب أن تعيها؛ ولن تنال خيراً إن لم تؤمن بها.

لفهما الصمت والوجوم.. وعاد "أنور" يهمـــس في أذن حـــاتم بصوت خفيض:

- يجب أن لا تبدو خائفاً هكذا!! أنت رجل وأنا أيضاً، على صغر سننا؛ ابقَ معي وسأعلمك كيف تتصرف حتى تكتب لنا النجاة؛ سيكون كلٌّ منا حماية للآخر من وحوش هـــذا العالم، والعالم الذي سنذهب لقتاله.
- أريد أن أطمئن أهلي وأخبرهم أين أنا؛ كيف أتصل بهـــم؟ أين يمكن أن نجد هاتفاً في هذا المكان؟ إنه يبدو كصحراء..
- هذا مخيم تدريب خارج مدينة "عمران ".. الكثير حـــدثني عنه. قد لا نبقى فيه كثيراً قبل أن يذهبوا بنا إلى مـــأرب أو

تعز حيث جبهات القتال؛ لن نجد هاتفاً عمومياً أبداً؛ ولـــن يسمحوا لك بأي تواصل خارج هذا المكان. أرى أن تنـــام كي ترتاح فغداً يوم شاق وطويل ستنسى فيه أين ولدت.

في الصباح الباكر تم إيقاظهم من مهاجعهم المزدحمة ليبدأ يـــوم مخيف حدثت فيه مواجهة حاتم مع السلاح لأول مرة في حياته وجهاً لوجه..

* * *

مضت ثلاثة أيام و"حاتم" ذاهل تماماً؛ ينهشه القلق والحزن على والديه وأخواته الخمس. يتخيل مشهد أبيه العاجز وهو عاجز فعلاً عن البحث عنه. يتخيل والدته التي لا تخرج من المنزل إلا لماماً وهي تجري في أزقة الحي تسأل عنه أبناء حيهم؛ سيخبرها صاحب البقالة وهو يناولها طبق البيض: إن "قايد" عاقل الحارة أخذه في سيارته في الصباح الباكر. وستذهب هي إليه وتسأله عن حاتم وأين ذهب به؛ وسينكر معرفته وقد يتهم والدته بقلة الحياء لمقدمها إليه..

حين يصل إلى هنا في خيالاته تحرق الدموع عينيه فيطأطئ رأسه بين ركبتيه محاولاً إخفاء نشيجه الصامت فيلكزه "أنور" قائلاً:

- كفّ عن التفكير بأهلك فهم بخير.. وأنت ستكون بخير ما دمت معي. ثق بي يا صديقي.

يهز "حاتم" رأسه في دهشة لصلابة "أنور". لقد عاش في أسرة كلها تقاتل في صف جماعة الحوثي؛ شاهد الكثير ممن عرفهم يعود قتيلاً وشارك في دفن كثيرين؛ لم يعد طفلاً يبكي لحضن أمه فقد رأى أحضان الموت أكثر.

في اليوم الثالث تمت مراسم مهيبة لتوزيع مفاتيح صغيرة على المجندين مع بعض الأوراق المغلفة بعناية على وقع خطبة مجلجلة عن قداسة هذه المرفقات لكل مجاهد؛ البعض ربطها حول عنقه والآخر حول معصمه؛ التعامل بقداسة مع تلك المفاتيح وبعض الأوراق المغلفة أثار استغراب حاتم فسأل أنور بعجب:

- هل حقاً تصدق أن هذه المفاتيح لدخول الجنة؟ أو أن هـــذه الأوراق ستفعل لك شيئاً.

رد أنور بثقة:

- هذه الأوراق هي "حروز" الحفظ من السيد مشمولة ببركته ورعايته ويجب أن تعامل بقداسة وأن نثق في قدرتها الخاصة على حفظنا.
- لكن الذين حملوها قبلنا قُتلوا و لم تتكفـــل بحفظهـــم مـــن الرصاص كما يقولون؟

ضحك أنور وهو يهز رأسه بلا اهتمام:

- نعم قُتلوا.. ودخلوا الجنة بهذه المفاتيح؛ أظن الجنة أفضل من الدنيا على كل حال.

قسم المجندون إلى مجموعات كل مجموعـــة اســـتقلت ســـيارة عسكرية مكشوفة وتحرك الموكب باتجاه جبهات القتال.

حرص "أنور" أن يكون برفقة "حاتم" جنباً إلى جنب. كلٌّ منهما يعتنق سلاحه الثقيل وقلبه يحمل خوفاً أشد ثقلاً؛ لم يعلـــق في ذهـــن "حاتم" شيء مما تدرب عليه خلال ثلاثة أيام.

بالكاد أروهم كيف يقومون بحشو الرصاص وإطلاقه..

قال "أنور" وهو يحاول أن يجعل صوته ثابتاً:

- لم نتلقّ تدريباً كافياً؛ ولا يهم في نظرهم إن تدربنا؛ يبـــدو أنهم يعانون نقصاً كبيراً في الأفراد لهذا يـــذهبون بنـــا دون تدريب؛ أبناء عمومتي ظلوا في هذا المعسكر لثلاثة أشـــهر تدربوا كثيراً حتى أجادوا القتال.. لكنهم قُتلـــوا في كـــل حال.. لذا لا فائدة.

وأطلق ضحكة مفتعلة وهو يلكز "حاتم" بكتفه:

- هل ما زلت تذكر كيف يطلقون الرصاص يا بائع البـــيض الساخن والبسباس؟

ضحك "حاتم" بشرود ففي ليالي المعسكر المظلمة كان و"أنور" لا يكفان عن الحديث عن حياتيهما.. كأنما يشعران أنها حياة بعيدة.. بعيدة وقد لا تعود.

الموكب يلتهم الطريق والقلق يلتهم أفئدة الجميع.. إنه السفر إلى الموت والقتل.

كل من في هذا الموكب حملته الحماسة إلى شيء مبـــهم يخفيـــه عمن حوله؛ البعض ذاهب ليقاتل بكل إخلاص من أجل الدفاع عن الوطن ضد عدو خارجي وقد تناسى عدو الداخل؛ البعض يرى السيد هو الوطن؛ والبعض يرى الزعيم صالح هو الوطن..

والبعض يرى كسرة الخبز هي أجمل الأوطان.

***

دفع المشرف على المجموعة "حاتم" أمامه في الطريق وهو يقـــول مشجعاً بضحكة هازئة:

- تقدم يا بطل؛ لا تخف نحن لا نزرع الألغام هنا بين الصخور ومرتزقة "العدوان" لا يزرعون ألغاماً في أي مكان.

كان الطريق شديد الوعورة لطفل نما في أزقة صنعاء الإســـفلتية؛ إنما لم تكن وعورة الطريق ما يقلق حاتم ويجعله يتلفت خلفه مع كل خطوة ولا هي كلمة الألغام المرعبة؛ أقلقه أن أنور كان بعيداً في نهاية سرب المقاتلين الذين يصعدون أعلى الربـــوة إلى حيـــث المتـــارس لاستبدال مقاتلين آخرين؛ بقاؤه مع أنور الذي كمثله تمامـــاً يشـــعره بالقليل من الأمان والراحة.

إنه تقريباً لا يتحدث مع أحد سواه. لا يحتمـــل أن يكتشـــف الآخرون مدى خوفه وحزنه.

إذا كان ينبغي أن يموت فليمت كرجل..

وصلت المجموعة إلى الثكنة وتم تبادل الأماكن مع مـــن كـــانوا هناك؛ بحث حاتم بعينيه عن أنور؛ كان الظلام شبه حالـــك إلا مـــن مصابيح يدوية ضئيلة الإنارة في أيدي المشرفين.

شعر بقبضة أنور على كتفه؛ رآه واقفاً خلفه وقد تدلى ســـلاحه وتدلت معه كتفه بإنهاك شديد؛ أنور يرتدي الثوب اليمني المعـــروف مع حزام على خصره كان يبدو كرجل صغير في تصـــرفاته وفهمـــه للأمور حوله؛ بخلاف حاتم الذي صادف أن كان يرتدي بنطلوناً من

القماش قد تغير لونه بفعل القدم؛ يرتجف كفتى مدينة لم يغادر أحضان والدته.

جلسا على الأرض بصمت؛ كلاهما يعلم الآن أن الرصاص يمكن أن ينهمر من التلة المقابلة وتبدأ معركة شرسة تنتهي بموت الكثير من الطرفين؛ همس حاتم برهبة:

- أنور.. إذا قُتلت هل تعدني أن تذهب إلى أبي وأمي وتطلب منهما أن يسامحاني.

ضحك أنور بسخرية مخنوقة:

- لن تُصاب بسوء ولا أريد منك أن تذهب إلى أحد لتطلب منه السماح لي لأني لن أموت؛ ما زلت أريد أن أحيا وأسافر إلى أماكن غير ذمار المليئة بالقبور؛ دعنا ننم قليلاً قبل أن يبدأ الحصاد؛ وابقَ قربي فمن هنا ليسوا ملائكة؛ إنهم شياطين بشرية؛ ويرون صغار السن منا لقمة سائغة لعبثهم الماجن بعد أن تتغلب عليهم الحشيشة.

همس حاتم بصوت مرتعش:

- ماذا تعني؟ لست أفهم.

انحنى أنور مقرباً رأسه من رأس حاتم وهو يهمس:

- هناك من قص لنا حكايات عن اغتصاب للمجاهدين صغار السن في ثكنات الجهاد من قبل المجندين فيما بينهم؛ إنهم يستفيدون من أجسادنا لمتعتهم ودروع لمتاريسهم وأخيراً أرقاماً لضحاياهم؛ ما زلت أذكر ذلك الولد من قرية قريبة منا حين فضل أن يموت في المعركة مختاراً على أن يعود بعار اغتصابه من قبل وحش بشري يدعي الجهاد في سبيل

الوطن.. يتعاطون المخدر والسحر ليتحولوا إلى وحوش تقتل وتنتهك الضعفاء.

وأطلق ضحكة اشمئزاز خافتة وهو يستطرد:

- اغتصاب قبل الاستشهاد. احمِ نفسك يا صديقي فالقتل الذي يوجع هو أن تُقتل رجولتك ويُنتهك شرفك.

احتضن أنور سلاحه واتكأ إلى حجارة المتراس وأغمض عينيه منهياً حديثاً يجمع المخاوف ولا يبددها؛ لحظات وقد غرق في النوم كطفل أرهقه أن يكون رجلاً طوال اليوم.

لم يستطع حاتم أن يغمض عينيه من شدة قلقه وخوفه؛ خيالات والديه تطيِّر النوم والراحة من عينيه. قطع عليه حبل خياله الذي يوثق عنقه بقسوة الفقد مجيء مقاتلين اثنين جلسا إلى جوارهما خلف المتراس؛ كان أحدهما يملأ فمه بأوراق القات وعيناه متسعتان؛ إنها تلك النظرة المصاحبة للمخزِّن حين يصل إلى ذروة الكَيْف؛ الآخر يحشو شفته السفلى بالبردقان، وهو نوع آخر من الكَيْف أشد قرفاً.

كلمات أنور تطن في رأسه كرجع الصدى..

كم تبدو أشكال هؤلاء الرجال مخيفة بالقياس لتسميتهم برجال الله أو المجاهدين!!

ضمّ ركبتيه إلى صدره أكثر فيما ترك السلاح يترنح واقفاً قربه وقد نسي وجوده؛ سقط الكلاشنكوف على جانب رأسه فنبهه لوجوده فضمه بجوار ركبتيه النحيلتين.

ضحك الرجل الذي يحشو فمه بالبردقان فبدا فمه الملطخ بالسواد من خلال ضوء البطارية اليدوية أشد رعباً.

تسمرت عينا حاتم من الخوف؛ يحاول جاهداً أن لا يغمضهما؛ أحياناً لا يصدق أنه هنا مع هؤلاء الذين لا يربطهم به شيء؛ لا قرابة ولا معتقد..

يا لها من ليلة تختلف عن ليالي منزله وهو محاط بحنان البيت كله.

بدأ الترقب.. يصاحبه خدر يزحف ببطء إلى جسد "حاتم"، وسقط في النوم أخيراً.

***

أصوات الرصاص تأتي من بعيد.. مصحوبة ببكاء والدته وهي تسأل أولاد الحي:

- هل رأيتم حاتم.. ابني حاتم.. حاتم.. حاتم..
- استيقظ يا حاتم وخذ سلاحك كي تدافع عن حياتك.

ضوء الفجر يرافق الرصاص الذي ينهمر كالمطر؛ يسمع أزيزه واصطدامه بحجارة المتراس خلف رأسه؛ أصوات الرصاص الذي يطلقه الرجال حوله كان مهولاً طار له لب حاتم فالتصق بالحجارة خلفه وهو يضم سلاحه إلى صدره.

صرخ فيه أنور بصوت غطاه صوت الانفجارات البعيدة:

- إنهم قريبون؛ لقد تسللوا بغتة منا؛ أعد سلاحك للإطلاق؛ إذا وقعنا في الأسر فنحن محظوظان.

ظل "حاتم" مسمّراً بلا حركة أو كلمة؛ يخشى أن يرفع رأسه فتصيبه رصاصة؛ يخشى أن يختلسه الموت ولا يعرف كيف؟

أنور لا يتوقف عن الحركة محاولاً أن يطلق الرصاص من فتحات وشقوق المتراس؛ كأنما غادره خوفه كله دفعة واحدة وأخذته الحماسة للمشاركة في تبادل إطلاق الرصاص بلا توقف.

شعر حاتم بمدى جبنه وخوفه؛ لو رآه والده هكذا هل كان سيرضى بحاله هذا؟!!

تمالك نفسه رغم ازدياد حدة الضرب والتفت إلى أنور:

- أنور لا تطلق رصاصاتك في الاتجاه الخاطئ؛ أنا لن أقاتل في صف الحوثيين حتى لو قُتلت على أيدي مقاتلي الشرعية.

أطلق أنور ضحكة متشنجة وهو يقول:

- سيقتلوننا إن لم نقاتل.. قم يا حا..

وصرخ بأعلى صوته وهو يرتمي على ظهره..

لقد أصابته طلقة رصاص في صدره؛ كان جسده ينتفض بقوة وهو يصيح:

- أصابوني يا حاتم.. لقد قتلوني.. أسعفني يا حاتم لا أريد أن أموت.. لن أموت.

جن جنون حاتم وهو يرى صديقه مصاباً والدماء تنبثق من صدره بقوة؛ أندفع منحني الظهر باتجاه المتراس القريب وهو يصيح:

- ساعدوني، أنور أصيب في صدره؛ ساعدوني..

كان صوت الرصاص يطغى على كل صوت؛ البعض كان ينسحب هارباً من الثكنة والكثير كان قد سقط بين قتيل وجريح.

لم يعد يشعر بالخوف من أزيز الرصاص الذي يمر من جواره؛ أصبح كل خوفه أن يموت صديقه أنور.

عاد إليه زحفاً على ركبتيه وهو يطلق لدموعه العنان بلا خجل؛ كانت الدماء تنبعث من صدره كنافورة صغيرة؛ وقد شخص بصره وفمه يرتجف وقد استحال لونه إلى بياض بارد.

همس بصوت لا يكاد تلتقطه مسامع حاتم:

- لا أريد أن أموت يا حاتم..

لم يتمالك حاتم نفسه فانفجر بالبكاء مطلقاً صرخات هستيرية وقد فقد زمام نفسه؛ احتضن رأس صديقه الذي شهق بقوة قبل أن تهمد حركة جسده المرتعشة.

***

وجوه كثيرة تحدق إليه..

بعضها يبتسم مطمئناً والآخر يتنهد مشفقاً؛ كان يرقد في سرير معدني؛ ذراعه النحيلة يعتقلها أنبوب رفيع يمده بالدواء عبر قربة معلقة على حامل يقف عند رأسه.

تختفي كل الوجوه؛ ليطل وجه امرأة تشبه أمه.. لا.. لا تشبهها.. لكنها امرأة تبتسم بحنان وتمسح على جبينه المتسخ بتراب المعركة.. المعركة؟!!

هل انتهت المعركة؟ أنور.. يا الله أنور.. لقد قُتل أنور..

رائحة ثيابه المتيبسة من أثر الدم الذي نزفه أنور وهو يحتضنه تزكم أنفه وتيقظه من غيبوبة وعيه.

انفجر حاتم بالبكاء حين وصل وعيه إلى مشهد صديقه أنور قتيلاً بين ذراعيه وهو يردد:

- لا أريد أن أموت.

احتضنته المرأة بحنان وهي تهمس الكلمات المطمئنة في أذنه:

- أنت بخير يا بني؛ أنت بين أهلك؛ سيكون كل شيء على ما يرام.

هل تريد أن تطمئن عائلتك؟ هل تحفظ رقماً لهم؟

عائلته؟!!.. أزاح مشهد والدته الباكية كل غبار الحرب والدماء والأشلاء المتناثرة في الجبل؛ همس بصوت مبحوح لا يعرفه:

- هل تسمحون لي بذلك؟ هل يمكنني أن أحادث أبي وأمي؟
- بالتأكيد يا بني؛ أنت هنا في مأرب مع الجيش الوطني الذي يحميك كما يحمي الوطن؛ لقد قلت الكثير في هذيانك؛ أعطني الرقم كي أبلغهم أولاً واسترح أنت حتى أعود.

يمكنك أن تغير ثيابك بنفسك وتغتسل..

وابتسمت بشفقة وهي تستطرد: حاولت مساعدتك لكنك كنت خائفاً و لم تترك لي فرصة لنزع ثيابك المليئة بالدم والتراب.

إنه لا يذكر شيئاً.. خائف من كل شيء؛ الآن صوت المرأة وهي تحادث عائلته يأتي إليه كحلم مثل كل الأحلام التي رآها ولا يصدق أنها حدثت فعلاً.

هاتفت سماح العائلة وكما توقعت لم تكن تدري بمكان ولدها الذي اختُطف على يد عاقل الحارة؛ انهارت الأم باكية وهي تتوسل إلى سماح أن يهتموا بابنها وألا يؤاخذوه فما هو إلا ضحية بريئة.

شرحت لهم ما تعرض له من صدمة عصبية ونفسية حين قُتل صديق له بين يديه؛ وأنه يخضع الآن للعلاج وستسافر به بنفسها إليهم حال تماثله للشفاء وسيحدثهم الآن بنفسه هاتفياً كي يطمئنوا.

تركت له الهاتف وخرجت من الحجرة تغالب الدموع ألماً على طفولة أبناء هذا الوطن..

أخبرها الرجال الذين جلبوا حاتم إليها كي تقيد حالته ضـــمن المنظمة التي تهتم بشأن الطفولة؛ أنهم بصعوبة فائقة فكوا ذراعيه اللتين تشبّثتا بجثة صديقه؛ كان يصرخ في حالة انهيار عصبـــــي ونفســـي رافضاً ترك أنور وهو يردد:

- لا تقتلوا أنور.. لا تقتلوا صديقي.. إنه لا يريد أن يموت.

***

(5)

الصمت احتجاج أقوىٰ من الصراخ فخلف الصمت تنمو الكراهية.

عائلة وحيد

دخل مراد على والدته الحجرة وهو محتقن الوجه بشكل أخافها، صلى العصر قربها بسرعة خاطفة والتفت نحوها قائلاً:

- قد أتأخر اليوم مساء يا أمي.

قالت له وهي تتفحص عينيه المحمرتين بقلق:

- لماذا؟ ما بك يا مراد؟ هل كنت تبكي؟

ارتجفت شفته السفلى وهو يغالب البكاء وهمس:

- صاحبي مات.. شاهر قُتل في الجبهة.. وانصرف مسرعاً قبل أن تحبس والدته شهقة خرجت منها موجوعة من القلب.

تتذكر "شاهر" ذلك الشاب الذي سكن في حارتهم مع عائلته القادمة من "القفر"؛ الشاب الضاحك الذي يعرفه زوجها وحيد منذ كان صغيراً.

لقد ساعد أبناءها في نقل قطع الأثاث حين نزحوا من صنعاء عائدين إلى إب، وكم أحبه أبناؤها الأربعة لشهامته ودماثة أخلاقه.

لكن "مراد" رافقه كثيراً، أكثر من "ماهر" الذي في مثل عمره. وكانت تخشى هذه الرفقة حين أصبح "شاهر" في اللجان الشعبية لمليشيا الحوثي.

فكلما عاد من جبهة "صرواح مأرب" ازداد قلقها من لقاءاته

بولدها الثاني، لم تخبر وحيد عندما بقي في صنعاء أنها رأت مراد يقلد شاهر في حمل السلاح لأكثر من مرة والتقط له صوراً عديدة بتلك الهيئة.

و لم تخبره عن تلك الجلسات المطولة في بيت "شاهر" والتي يحضرها مراد خلسة منها وكانت تعرف بها في النهاية؛ لم تخبره عن ولع ولدها بالزوامل الحماسية لجماعة الحوثيين فقد صارت موضة بين شباب جيل نشأوا مع الحرب.

أخفت قلقها كله من تصرفات ولدها وتأثره بكل ما يفعل صديقه.

لكنها اليوم لا تخفي حزنها على ذلك الشاب الذي ظن أنه يقاتل العدو الخارجي حتى آخر لحظة.

حزينة على شبابه الغض وحزينة على حزن ولدها ودموعه الغزيرة..

حزينة لهذا الحال كثيراً، كيف ذهب شاباً ممتلئاً حيوية وحياة وعاد مجرد صورة ستعلق في مدخل الحارة على عمود يقابل منزلهم ككل الصور.

فهناك على امتداد أطول شوارع مدينة إب وعلى مسافة متقاربة كل بضعة أمتار شنقت على أعمدة الإنارة المظلمة لوحات لأربعة وجوه، تلك الوجوه مكللة بالورد الأحمر ومطوقة باللون الأخضر، لون جنتهم الرسمي.

لم يتبق من أولئك البشر سوى وجوهٍ لصورٍ مرسومة كانت أرواحاً تدب على الأرض تحمل شقاء العبيد حين يُساقون إلى الموت قرباناً.

كأن أعينهم المفتوحة تحدق في المدى الواسع لشارع لن يعود بهم إلى البيوت أبداً.

نظراتهم تحمل ابتسامة ميتة تراقب الذاهبين في الطريق أحيـــاء، والعائدين جثثاً، ليصبحوا صوراً جديدة تزين بها شوارع مرت عليها مسيرة الخراب.

لو كانوا ينطقون لاستوقفوا المارة كل يوم قائلين:

- من دمائنا يشرب السادة لأننا العبيد، وعلى قبورنـــا تُـــبنى قصورهم ويكفينا نحن لقب الشهيد.

لعلها الحرب المقدسة الوحيدة التي خلفت وراءها أكـــبر ألبـــوم صور لأطفال قُصر تحت مسمى شهداء مجاهدون يتباهون بها بإقامـــة معارض فخمة غاصة بصور القتلى.

إنها مسيرة حرب زرعت في أرض الوطن أقبح مـــا ســـيذكره التاريخ لحقبتها السوداء.

لقد زرعت بشراً في عمر الزهور في مزارع القبور الهائلة لتنبـــت صوراً جامدة.

زرعت ألغاماً بأعداد بذور القمح كي تحصد الحيـــاة معاقـــة أو ذبيحة.

زرعت أحقاداً لا تطفئها سنوات من التأهيل بين أبنـــاء وطـــن واحد.

زرعت طائفية وعنصرية ستمتد آثارها كالنار في هشـــيم هـــذا الوطن.

زرعت فوضى عارمة في كيان وطن بلا دولة أو سلطة بـــل في قبضة عصابة وقطاع أرزاق.

هذا زرعها الأسود مهما لطخته باللون الأخضر أو بكل ألـــوان قوس قزح.

يتفنن إعلامها بإيهام الشباب المتحمس أنها مسيرة لصد العدوان الخارجي، ويتناسى أننا لا نرى الموت إلا مصبوباً من الداخل بشـــتى الطرق.

يغالط بإطلاق كلمات رنانة عن الحرية والكرامة وتتناسى أنهـــا من أهدرت الحريات والكرامة والوطن؛ يبهر الشباب ببث عمليـــات خارقة أسطورية تضاهي عمليات الرجل الوطواط والسوبر مان عـــبر قنواته الكثيرة كأنها تحاصر العقول.

الشباب تواق إلى بطولات مخدرة على العدو المصنوع من التمر كي تنسيهم وضعهم المعيشي البائس< يتناقلون عبر وسائل التواصـــل مقاطع بسالة اليمني المحفوظ بحرز السيد ومفتاح الجنـــة في مواجهـــة العدوان المدجج بأحدث الأسلحة الحديثة فتشتعل قلـــوبهم حماســـة ليكونوا هم الأبطال في ميادين القتال.

هكذا يتم عبر الأثير غسل أدمغة الشباب بهالة سحرية من التفوق الأسطوري الخارق من أجل المزيد من الصور الخضراء في الشوارع..

مقاطع مفبركة بتمثيل أقرب لإتقان الحقيقة وإطلاق إشـــاعات منظمة وتصريحات أقرب للسخرية عن غزو الفضاء بأســـلحة غـــير مألوفة لصناعة لم توجد عند أهل الأرض؛ وزوامل حماســـية تخـــرج الشباب من جلودهم يتقافزون في حماسة.

كلها هلوسات سحر عصري تستهدف العقول بجـــدارة؛ ولا تختلف عن ممارسات أجدادهم للسحر والشعوذة حتى يضمنوا تفوق سلالتهم وخضوع الرعية وانقيادهم للأئمة.

إنما مهما مارست دجلها وشعوذتها الإعلامية على عقول البسطاء والشباب المندفع سيأتي اليوم الذي تحصد فيه كل ذلك الغراس الذي نمى وترعرع في مسيرتها الخراب، سيلقف الوعي كل إفك يرمي به سحرتهم وسيأتي يوم الحصاد لكل زرعها في أرض اليمن.

***

يؤلمها حزن ابنها كثيراً، وتؤلمها نظراته المصدومة غير المصدقة.

فحتى هي لم تغادر خيالها وقفة ذلك الشاب أمام مدخل عمارتهم حين يتجمع شباب الحارة يتجاذبون أطراف الحديث. ما زالت ابتسامته عالقة في خاطرها رغم أنها لم تلمحه سوى مرات قليلة.

فماذا فعلت هذه الجماعة العنصرية بأبناء الحي الواحد؟!

رغماً عنها تمنت أن يكون موت "شاهر" ذلك الدرس القاسي لولدها "مراد" فقد استهوته كثيراً قصص البطولات الكاذبة.

ما أشد قبح هذه الحرب التي يسمونها أهلية!!

وما أبشع هذا التصنيف المهذب!!

يسمونها أهلية لأنها تنشب في أهل وطن واحد.. بين أهالي حي واحد!!

لمرحلة ما كانت الحرب لعبة للصغار يلعبونها في أزقة الأحياء.

وحين شبوا صارت حرباً حقيقية يلعبها الكبار ليموت فيها الصغار دائماً.

لماذا سيفنى شبابنا بين قاتل ومقتول ومن سيحكم وطناً بلا شعب؟ وطناً كله مقابر وحزن كلما دفناه أنبت من جديد.

والدة مراد تشاطر ولدها حزنه الذاهل بصمت..

حتى هي تفكر كيف ستنام وبين عينيها ابتسامة ذلك الشاب وقد تركها خارج ثلاجة الموتى وحيدة، باردة تلك الابتسامة لشاب ساقه الفقر كي يموت بلا ثمن..

كيف تمحو من خيالها كل تلك الأرواح التي تزدحم في رحيلها كل يوم نحو سماء الوطن..

يا له من مساء حزين؛ صارت السعادة دائماً تأتي مبتورة والحزن دائماً مكتمل.

سعادتها بنجاة زوجها وحيد من فاجعة الاعتقال نسفها قدر حادث السير لتعتقله غيبوبة لا تعلم هل هي بسوء المعتقلات هنا؟

تسمع قصة "وليد" صديق زوجها ولا تدري أيهما أفضل حالاً؟

"وليد" الذي اعتقلته ميلشيا الحوثي قبل شهور؛ وخرج من المعتقل قبل أيام؛ والحق أن ما خرج هو ما تبقى منه فقط. والدة "وليد" صديقة أثيرة لأم وحيد.

أم ملتاعة تروي قصته لكل من دخل دارهم زائراً ومواسياً؛ تخبر صديقتها تفاصيل اعتقاله حين زارتها برفقة زوجة ولدها؛ يومها فرحت زوجة وحيد لهروبه ثم بكت لأنها فرحة مهشمة بحادث كان في طريق النجاة.

لقد تربص مسلحون بوليد وهو عائد إلى بيته بعد صلاة المغرب؛ انقضوا عليه بأسلحتهم وكراهيتهم وربطوا عينيه بعد تكميم فمه، كان فزعاً من خشونة تعاملهم لكنهم أخبروه أن "المشرف أبو العباس" يريده فقط..

"المشرف" صار اسماً لكل شيء بغيض في هذا الوطن؛ إنه القاتل والفاسد واللص والمنتهك لكل حق في كل منطقة يعين فيها هذا المشرف.

لكنهم أوصلوه إلى مبنى الأمن وهناك لاقى صنوف التعذيب والتنكيل التي يعاني منها كل مختطف في سراديبهم المغلقة والغامضة.

لم يكن يعلم أي تهمة وجهت إليه لكنهم قد أعدوا قائمة من التهم الجاهزة.

طلبوا منه أن يعترف أنه "داعشي" هذا اللفظ المطاطي الذي أصبح معلقاً على مشجب الاتهام والإزاحة، طلبوا منه أن يذكر لهم كم شاباً قام بإرسالهم للقتال ضدهم في مأرب.

ومن هم قيادات حزب الإصلاح الذي يتواصل معهم من أجل إعداد متطوعي "المرتزقة والخونة".

نعم، أصبح الوطنيون خونة والشرفاء الحفاة في جبهات المقاومة مرتزقة..

هكذا تنقلب الصور البهية لتصبح قاتمة السواد حين ينطقها لصوص الوطن.

لقد عذبوه كثيراً بالضرب على مناطق في جسده بتركيز كبير جعله يصاب بشلل في ساقه اليسرى، تقيحت جراحه وانتشرت

أوجاع جسده وروحه وفشلت كل المناشدات لإخراجه.

تم نقله من معتقل إلى آخر أشد قسوة وسوءاً وفي كل مرة يُعاد التحقيق معه والتعذيب بطرق مبتكرة ووحشية.

أخيراً فقد النطق مع ابتلاع الشلل لنصف جسده كاملاً؛ صار كومة ألم ولحم فاسد يعجز عن الحركة أو الاحتجاج.. لا تنطق فيه سوى دموع صامتة ترفض السقوط فكل شيء حوله ساقط بجدارة.

حتى عندما قرروا الإفراج عما تبقى منه؛ اتصلوا بعائلته كي يأخذوه فقد انتهوا منه؛

طلبوا من عائلته مبالغ مالية هائلة ودفعتها الأسرة في يأس كبير أن يخرج ولدهم دون دفعها كاملة.

والدته المسنة لا تكف عن البكاء عند رؤية ولدها يعاني الحياة أكثر من معاناة الموت نفسه؛ لقد تم اعتقاله دون جرم ليصبح معتقلاً مدى الحياة للعجز الجسدي والنفسي.

سيظل معتقلاً طيلة عمره بعد جرم اعتقال.

صار الوطن سجلاً لقصص مروعة تحيط بك أينما ذهبت؛ قصص فاجعة لا تمت لطبيعة اليمنيين بصلة.

يروي لها مراد قصة الشاب "آدم"* الذي قتلته زينبية ملقبة بأم المجاهدين؛ كيف اغتالته في أحد شوارع مدينة إب بعد أن عجزت دوريات الحوثيين عن النيل منه فقامت بمحاصرة المكان الذي يقطن فيه؛ فيما توجهت الزينبية إليه بحيلة لئيمة كامرأة تعبر الطريق؛ طلب منها أن تبتعد عن المكان خوف الإصابة بعد حصار المليشيا لمكانه؛ فاغتالته بوابل من الرصاص من خلف ظهره حتى انتشرت أحشاؤه على مرأى من الناس في الحي.

قصص تنتشر كالدود في جسد مجتمع أصابه المرض؛ لم يشـــهد وحشية كهذه من قبل؛ انتهاك لكل الأعراف القبلية التي كانت درعاً يلجأ إليها العقلاء في نزاعاتهم واستهانة بالأرواح كأنها لم تخلـــق إلا لخدمة سلالة واحدة.. هي السلالة المقدسة.

***

وكأنما أجهز خبر الحادث الذي وقع لولدها على ما تبقى من قوتها وصلابتها؛ استسلمت أم وحيد لشيخوخة طالما أنكرتها فأتت كلها دفعة واحدة بعبارة وصلت إلى هاتف ولدها الأكبر ذات صباح لم تشرق فيه شمس في عينيها.

في الأيام الأولى قيل لها إنه بخير فيما عدا رضوضاً قليلة وسيتحدث إليهم هاتفياً..

كانت الرسائل تأتي مطمئنة وتؤكد على سلامته؛ وخلال أسبوع مر عليها كدهر قررت السفر فيه إلى مأرب رغم كل صعوبات التنقل؛ حينها أتى خبر سفره إلى المملكة لتلقي العلاج هناك.

هبط عليها الخبر كأنه حادث آخر ذلك الذي أصاب قلبها الملتاع.

تلاشت ثقتها بسلامة ولدها كما يحاولون إقناعها.

طرقت سبل كثيرة كي تصل إلى ولدها الراقد في أحد مستشفيات المملكة.

سعت إلى كل من له علاقة بوحيد ويمكنه أن يساعدها بالدخول مع زوجته وأولاده؛ لكن الرد كان استحالة الدخول بعد منع تأشيرات دخول اليمنيين الذي تكاثر عددهم هناك وبدأت المملكة بسن قوانين ترحل المغترب العامل قبل أن تعيد اللاجئ السياسي والهارب من قبضة الحوثي.

كان النزوح واللجوء كبيرين في بداية الحرب لكن مع بدايات

عام 2017 صار الترحيل والعودة هو الغالب عند من لا يجد عملاً يعتاش منه.

البعض حاول إقناعها بالدخول بمفردها لحج ذلك العام؛ لكن تكاليف الحج كانت باهظة.

وسفر الحجيج محدود؛ و لم يطاوعها قلب الأم أن تذهب بمفردها مخلفة أبناءه الأربعة.

تفاقم وجعها وحزنها على إصابة ولدها وهي تحاول الصمود من أجل الصغار؛ كانت ترى فيهم وحيد فتشتاق إليه وتكابر من أجلهم في وجه كل ذلك الضعف الذي اعتراها بعد خبر الحادث.

منذ رحيل زوجها قبل سنوات طويلة كانت الأم والأب لأولاها وبناتها وكان قلب وحيد هو أمها وأبوها.

كان الأكثر حناناً ومساندة لها؛ يحاول جاهداً أن يسعدها ولا يوجع لها قلباً؛ كان سنداً لها حتى في سنوات عمره الفتية.

كم تخشى رحيل هذا السند مرتين لتبقى وحيدة في وجه الحزن دون وحيد.

هدها الوجع من الداخل فتآكلت مرضاً صامتاً لا يشكو إلا لله.

ومع بداية موسم الحج الذي تمنت أن يكون لها نصيب فيه سقطت طريحة الفراش، وقد أسلمت جسدها للمرض انتظاراً للرحيل.

جمع مرضها كل أبنائها وأحفادها حولها؛ لكن نظراتها تعلقت بأبناء "وحيد" فهم الفقد مرتين.

وذات غروب حزين أسلمت روحها للموت وهي تهذي باسم وحيد..

***

(6)

ويحدث أن تبهت ألواني وأنا أرسم وجهـًا لك أيها الغد

فيغدو وجهك جزءاً من هذا الليل.

عفراء

حين يغيب عنا من نحب نلجأ للبحث عنه في كل ما مضى؛ يؤلمني ألا أعرف برحيلك إلا وأنت على سرير مستشفى يبعد عن قدرتي في الذهاب إليه مهما فكرت أن أذهب.

أنا أبحث عنك في رسائلك يا وحيد؛ تلك التي تبدأها بـ "حبيبتي عفراء" فهل من الحب أن تقتلني برحيلك؟!!

بالأمس فكرت في قراءة رسائلك القديمة؛ وكانت فكرة غبية جداً..

لكن الأغبى منها هو أنا..

لقد كان فيها أشياء مؤلمة لم أكن أفهمها؛ لكن الأكثر ألماً هو شعوري وأنا أقرأها في تلك اللحظات.. وأنت مغيب.. على الأقل عن عينيّ أنا.

لقد كنت تتجه نحو البعد تماماً و لم أعِ ذلك وقتها؛ كنت تعدني باللقاء وأنت تنوي رحيلاً أبعد؛ تبيع ما تبقى من عمرينا من أجل وهم إقامة وطن على أرض حرب.

كنت نويت البعد؛ وسافرت حتى دون أن تخبرني أو تودعني.

ليتك أتيت إليّ قبل أن تخطفك غيبوبة موت؛ وليتني اختطفتك قبلها.

تباً للأدباء حين يكتبون عباراتهم هذه: "يلوك الوجع" و"يمضغ الألم ويبتلعه".

إنه يلوكني فعلاً وأبتلعه أنا فتمتصه كل خلية من جسدي وتئن.

تئن بوجع الصمت يا وحيد.

هل هناك أكثر وجعاً من أن تفصلني عنك غيبوبة حياة أعيشها أنا وغيبوبة موت تعانيها أنت؟!!

يا لهذا الحب ضاربة جذوره في عمق القلب كشجرة معمرة بألف عمر..

من أين لعواصف البعد والحزن أن تقتلع تلك الجذور الممتدة كأوردة الحياة في كل الروح؟

لها أن تكسر خطواتي المتعثرة نحوك؛ ولها أن تبعثر أوراق الشوق وتهشم أغصان توسلاتي التي أمدها إليك.. لها أن تجتث كل شيء فوق الأرض.. ولتبقى أنت في عمق القلب.. روحاً لن تُنزع مني. فحتى الموت سيحيل جسدي لحبك مجرد قبر.

تباً لقلبك الذي كلما اقتربت ظل يبتعد..

وتباً لهذه الحرب التي مزقتنا في أصقاع الأرض؛ ليحول بيني وبينك أكثر من كل تلك المساحات التي بين شمال وجنوب؛ بين رجل مشرد مطارد من وطنه وامرأة عاشقة..

أنت الباقي في قلبي يا وحيد كمرض يلازمه منذ الطفولة؛ يضعفه حد الموت وينعشه حد البعث.

ستبقى لأني جمعت فيك سنوات عمري كلها كحصّالة أخفي فيها لحظة وعد.. أن نلتقي.

أستيقظ فيها من حزني وتستيقظ أنت من غيبوبة حـــادث لـــن يأخذك مني مهما كان الأمر.

يا لهذا الأسى حين يصرّ كل شيء حولك على حرمانـــك ممـــا تتمنى!!

كل شيء يحرمني منك؛ غيبوبتك السادرة عن الشعور بما حولك فلا تناديني..

هذه الحرب التي تمزق وتشتت ولا تجمع إلا الضحايا في أرقـــام وأرصدة معونات..

هذا الوضع من التزامي بأم مريضة يحرمني أن آتي إليك حيـــث أنت، فأجد ذاتي التائهة عندك. وأتشبث بروحك التي تسكنني كي لا ترحل مني..

ربما تصل إلى مسامعك نبضات قلبـــي فتيقظك..

لا أصدق أن كل هذا الزمن مرّ دون صوتك وكلماتك..

صوتك الذي يكفي لإحلال الربيع في هـــذا الشـــتاء فتقصـــر لسماعه مسافات الاشتياق.

ماذا يفعل بـــي غيابك يا وحيد؟!

كلما رأيت أثره على ملامحي كرهت نفسي وكرهتك؛ أتساءل ماذا لو كان رفضاً منك لي! إلى أين ستذهب نفسي التائهة الممزقـــة بـــي في دروب الألم؟!!

لطالما كان النوم وسيلتي للهروب من الحزن؛ لكن مـــاذا عـــن هروبك في غيبوبة؟ هل هو الهروب الكبير؟

النوم ليس هروباً من واقع فقط بل هو السعي لحلم ربما يكـــون أجمل.

أتساءل هل يحق لي أن أعذب نفسي بك؟ من أجل ماذا كل هذا؟ وإلى أين أصل بهذا الشعور؟

كأن الزمن توقف في لحظة غيابك عن الإحساس بما حولك؛ حتى الهواء أثقل مما كان؛ صرت أسحب أنفاسي من ثقب يمتد من هنا وأنا في عدن حتى سريرك هناك في ذلك المستشفى عبر آلاف الكيلو مترات التي تفصلنا؛ كل شيء لا ينقضي أو ينتهي؛ لا هذه الحرب ولا هذا الحب الذي يكبر في داخلي.

أحبك بذلك القدر الذي يحفظ لك الخلود في روحي وأنا على قيد الحياة وتحت الثرى.

متى تعود؟ فعودتك ستكون ميلاداً لكل شيء حولي.. فكل شيء ميت بغيابك؟

آه يا وحيد.. طوال هذا العمر الذي قارب الأربعين وأنا أسعى إلى حرية لا يدركها الكثير؛ حرية مكمنها الداخل وليس قيود الخارج أو تلك الأسوار التي يضعها كل ما حولنا.

حرية القلب كانت حلمي، فلا أكون مملوكة لشعور يتسلط عليّ ليسوقني بين شعاب الرضا والسخط.

حاربت مخاوفي فأزلت كثيراً من قيود الحياة؛ وعجزت أمام قلبي حين أسلمني لحب كالسراب؛ لم تنفع مجازفاتي أو جنوني؛ بل زادت حياتي شقاء لأول مرة.

في غيابك أكتب كعادتي قصصاً عن هذا الواقع أنتزعها من جوف الخيال..

أتقيأ كل الألم داخلي كلمات يقرأها الناس بسعادة وربما بألم؛ فما نكتبه لا يعدو كونه سجلاً لخيباتنا الكبرى؛ نكتبها وجعاً ونزفاً

ويقرأونها متعة وتسلية.

لا يهم كيف نكون. ما يهمّ هو أن نكون بخير بالقدر الذي يحتاجه من حولنا منا، وليس بذلك القدر الذي نحتاجه لنتوافق فيه مع ذواتنا..

نكتب الوجع؛ رغم أن هناك أوجاعاً لا تُحكى أبداً للآخرين؛ فلا غرابة أن يتهلل قلبي فرحاً حين أستطيع الصراخ من وجع دون أي لوم.

لن يشعر بك إلا من كان مثلك، وغير هذا فادعاء للألم وإهانة لوجعك.

أنا أكتب لك ذلك الذي لا يُحكى إلا لك.. أكتب كل يوم وأخبرك كم أن غيابك أوجعني وكم أن الانتظار لا ينتهي.

أنا أنتظرك ككل الأشياء التي فات موعدها؛ أنتظر لأن الانتظار صار جزءاً من رحلتي إلى النهاية.

***

ماتت والدتك..

أبلغتني صديقتي "أروى" بذلك؛ هي تعلم قصتنا؛ وعرفت بموت والدتك بالمصادفة فمدينتك الصغيرة لا يختفي فيها خبراً مؤسفاً كهذا.

قررت أن أذهب إلى مدينتك الخضراء وفاء لك كي أعزي غيابك في والدتك التي أحببتها أنت كأول أنثى عظيمة في حياتك؛ عشقك لتلك الأم التي ربتك وحيدة دون أب جعلك تحترم كل نساء الأرض.

مجيئي لعزاء عائلتك كان قراراً صعباً عانيت في اتخاذه؛ ولولا أن أقرباء لي في طريقهم إلى صنعاء لبيع عقاراتهم هناك؛ واتخاذهم قرار البقاء بضعة أيام في إب لما عزمت على المجيء وترك أمي في منزل أخي.

وكأني سألمحك في أزقتها طفلاً أسمر بعينين واسعتين..

وأنا أخطو في أزقة حيّك ألمح طيفك داخلي في كل الوجوه.

أطرق باب منزلك وجزء حميم منك سيفتح لي الباب؛ سأعانق أجساداً طالما عانقتها أنت بحب فكأني أعانقك دون الغياب.

كان بقائي في العزاء خاطفاً؛ خشيت أن تفضحني نظراتي ولهفتي وأنا أتأمل طفليك الصغيرين؛ فهما جزء منك يحملان وجهك والشوق إليك.

لا حيلة لي في قلبي الذي أحبك مع كل احترازاتي بسبب عائلتك؛ تعرف أن القلب هو الثائر المناهض لسيطرة العقل وسلطته.

كنت أرى طيفك في أرجاء البيت؛ أمسك مقبض الباب وأنا أثق أن يدك أمسكته بنفس الطريقة؛ أسند ظهري إلى الجدار وأنا أشعر أنه أسند ظهرك يوماً..

أرى مجلسك في كل ركن وأتنفس الهواء وأجزم أن أنفاسك عالقة فيه؛ هذا أنت في عينيّ؛ كل شيء أمامي وحولي.

وأنا أتأمل زوجتك أيقنت أنها محظوظة كونها لا تعلم بالذي بيني وبينك.

لكن أنا أعرف جيداً ما بينك وبينها؛ أراه في كل شبر من جسدها؛ أرى بصمات أصابعك ظاهرة لي خلف ثيابها؛ أرى ملامحك التي أفتقدها في وجوه أطفالك الذين أتوا من رحمها هي..

يا لهذا الامتزاج بينك وبينها كم يجعلني أتشظّى غيرة أنا الغريبة عنك.

(7)

وأجمل ما فيك يا وطني..

مقدرتك علىٰ إبقائي علىٰ قيد العيش؟ كلما أوشكت أن ألفظ أنفاسي يأسـًا، أمددتني بجرعة بقاء.

وحيد

لأسابيع طويلة وجسد "وحيد الأمير" ممدداً على سرير المستشفى الأبيض يراوح بين الحياة والموت؛ معلقة أنفاسه بجهاز تنفس صناعي.

تمنى الكثير أن يقضي عليه الموت فيستريح؛ وتمنى المحبون أن تنتفض فيه الحياة من جديد طاردة شبح الموت المخيف من ملامحه الصامتة.

رازح بين الحياة والموت؛ الموت الذي خطف أرواح الكثير من المقاتلين في الجبهات؛ وأرواح المئات من الأطفال في اليمن؛ لم يأخذ روح وحيد الساكنة كالقبر.

الموت ذاته ذلك الذي اقتنص روح والدته حزناً عليه دون أن تلقي على ولدها نظرة تطمئنها أو يحالفه الحظ بوداعها كابن بارٍ بها.

اعتاد شائف في زيارته لصديقه أن يحدثه بأمور تحدث في عالم الأحياء، ربما قد تهم ذلك المتشبث بسرير العجز.

يحاول أن يبدد كآبة الغرفة الناصعة بياضاً كصفحة لم يكتب فيها القدر فرحاً؛ يخلق جواً من المرح في روح جسد هامد إلا من نفس ضعيف.

ذلك الصباح تثاقلت حتى خطواته؛ جلس على حافة السرير وقبض كف وحيد بين يديه كأنما يوصل له الحديث بأكثر من طريقة ناجعة؛ وبدأ يتحدث بحزن تسلل إلى كلماته دون شعور:

- كل الأخبار من الوطن لا تضيف جديداً يا وحيد؛ النـــاس ينتظرون الفرج؛ يشبهونك في رقدتك هذه.. أحياء.. إنمـــا يرفضون أن يستيقظوا مثلك تماماً.

رحم الله والدتك ربما تمنت كثيراً أن تكون مكانك هذا على أن تراك بهذا الحال؛ وأطرق بصمت مردفاً: رحمة الله عليها.

هل خيل إليه أن كفّ وحيد تنقبض؟!!

هل حقاً تحركت أصابعه المتيبسة منذ حوالى أسابيع طويلة؟!!

هتف بانفعال وهو يترك كفّ وحيد من بين أصابعه ويطوقهـــا ببصره فقط:

- هل فعلتها يا صديقي؟ هل قررت أن تعود؟ حرك يدك مـــرة أخرى كي أصدق أنه ليس حزني من صنع هذا الفرح الكبير.

كاد أن يتعثر بالأجهزة المتصلة بجسد وحيد حين احتضن رأسه وهو يرى كفه ينقبض ببطء للمرة الثانية انقباضة لا يلاحظها ســـوى قلب صديق.

أخذ يحمد الله وهو ينادي الممرضة كي تدعو الطبيب الذي ألقى نظرة فاحصة نحو الأجهزة والتفت بدهشة نحو شائف:

- معجزة! يبدو أنه يستيقظ من تلقاء نفسه.

كانت عودة وحيد إلى وعيه بطيئة تماماً كفترة غيابه التي قضاها في غيبوبة صمت وعزوف عن الحياة؛ بطيئة لكنها انتهت بفتح عينيه ليرى نور الحياة من جديد.

و لم يكن وحيداً كعادته.. لقد كان هناك مـــن ينتظـــره بكـــل الشوق والحب.

* * *

أخيراً عيناه تبتسمان..

صاحب الابتسامة الأجمل والعينين المضيئتين كسراج في عتمة الحزن. ابتسمت عيناه فقط..

ضوهما الخابي يزفر دمعة من أطرافهما كأنما صدمته ذاكرته بأحداث غاب عنها طويلاً.

اقترب شائف ماداً كفه لمسح الدمعة الهاربة وهو يقول بحنان الأب:

- حمداً لله على سلامتك يا صديقي؛ قوي وصبور كعادتك يا وحيد؛ محنة أخرى تضاف إلى رصيد خبرة الحياة لديك؛ وانتهت بمنحةٍ لعمرٍ جديد من الله تعالى لك.

انفرجت شفتا وحيد كأنما يهمّ بالحديث؛ وعاد ليطبقهما بقوة حتى ابيض حولهما؛ يخشى أن يسأل ماذا حدث فتؤلمه الإجابة.

أطبق الصمت كفم متعب إلا من ابتسامات فرح حزين.

"منذ متى تخاف المواجهة يا وحيد؟!! أنت الذي تعشق مصادمة كل شيء يقف في طريقك للوصول إلى الحقيقة؛ وتدرك أن ما سينكسر هو وهمّ قابل للزوال فقط.

عاد ليهمس بصوت بدا لأذنيه غريباً:

- اقترب يا شائف.. وجودك يقول إن ما حدث كثير؛ أخبرني كل شيء.

- أرى أن ترتاح لبعض الوقت فأنت عدت لوعيك قبل ساعات فقط بعد غياب لأسابيع طويلة..
- أسابيع؟!! يا الله.. كيف أمي يا شائف؟

ابتسم شائف بفتور وهو يضفي المرح على صوته:

- أمك الآن في خير حال ما دمت أنت بخير؛ قد عدت لأهلك ولنفسك؛ أياً كان الأمر يا وحيد نحن نرضى بقدر الله؛ ونعلم أن كل قدر خير؛ والحمد لله على عودتك.

أغمض وحيد عينيه بقوة؛ ما زالت ذراعاه ثقيلتين عاجزتين أن تزيح الدمع الذي انهمر من عينيه وقد تيقن أن والدته لن تنجو من حزنها عليه؛ لقد رآها في منامات كثيرة تبكي..

- آه يا أمي.. يا لي من بائس! صرت ذلك الطفل العاق في النهاية؛ رغم حرصي كل حياتي أن تكوني سعيدة بي إلا أنني قتلتك حزناً علي في النهاية.

كما أنت يا أمي دائماً.. وهبتني الحياة واستبدلك الموت بي كي أعيش.

يا أم وحيد: اغفري لي رحيلك دون وداع أو تحقيق سعادة أخيرة لك بنجاتي.

***

المقابر لا تحمل رائحة الموت إنما رائحة أولئك الأحبة الذين دفنا أجسادهم وتبقّت رائحتهم عابقة عالقة في جدران المقبرة وترابها وعلى شواهد القبور الصامتة..

حواسنا تتجه صوب قبور أحبتنا تجذبها الرائحة كل مرة نزورهم كي نبكي بقاءنا دونهم.

"آه يا أمي.. المقبرة التي تضمك هي الوطن وأنا البعيد في غربة فقط؛ كل الذين خلفتهم ورائي هم الوطن؛ زوجتي وأولادي؛ كل أهلي وأصدقائي؛ وعفراء وأحمد..

أحمد النويرة.. يا صديقي روحك لم تفارقني للحظة في غيابي عن الحياة..

كنت معي كما كنا دائماً، روحين لم تفترقا؛ الآن فقط أشعر أني تخليت عنك لحياة هي بدونك الغربة المرة فعلاً. خذلتك يا صديقي وخذلني جسدي، وما زال يفعل. ترى أين أنت الآن؟ ومتى يجمعنا وطن آمن من جديد".

ما زال جسد "وحيد" متصلب لطول رقدته في المستشفى؛ البقع الداكنة على ظهره لا تظهر لعينيه لكنها أشد وضوحاً في ذاكرته التي تتفتح تدريجياً؛ كلما تذكر أمراً أو شخصاً هب صارخاً متسائلاً أين وماذا حدث له في غيابه.

ينعش ذاكرته بأحاديث شائف عن كل الذين غابوا استشهاداً في المعارك؛ أو تشرداً في أصقاع الأرض. عن سير القتال في جبهات التحرير وحلم استعادة الوطن الذي يراوح مكانه بين تقدم وتقهقر؛

عن ضحايا التحالف الذين تساووا بضحايا المليشيا الحوثية..

عن مجازر الأسواق ومواكب الأعراس وقاعات العزاء التي تقصف بصواريخ التحالف نتيجة خطأ تقني لن يفهمه كل أهالي الضحايا ولن يحاكمه التاريخ أو تقام ضده الدعاوى القانونية للمقهورين.

الضحايا من البسطاء لا يعرفون أخطاء التقنية لكنهم يعرفون أن الدعاء يصيب الهدف عاجلاً أو آجلاً.

الطفلة بثينة ذات الخمسة أعوام الناجية الوحيدة بعد أن قصف التحالف المبنى التي تقطن فيها عائلتها في صنعاء؛ ضج ضمير الإنسانية لمشهد فيديو بث لها وهي تحاول فتح عينها المصابة لمشاهدة ما حل بها في هذا العالم القاسي؛ لتصبح شاهداً موجعاً على جرائم الأخطاء الوحشية؛ جريمة عادلت في صداها جريمة قصف صالة عزاء آل الرويشان في أكتوبر 2016 التي بلغ ضحاياها ما يقرب من سبعمائة شخص.

في إحصائية تقريبية مؤلمة حتى هذا الوقت من الحرب، أكثر من ألفي طفل فقط هم ضحايا لقصف الطيران الذي يرى المنازل الدافئة ثكنات عسكرية، ويرى الأسواق المزدحمة بالناس عروضاً عسكرية؛ يرى مواكب الزفاف فيقلبها إلى جنائز في لحظات، حين تتناثر أجساد النساء مخضبة بالزينة والموت الغادر.

يترك أهداف المليشيا ليقصف المقاومة؛ تُحدَّد له الأهداف فيضرب ما جاورها في حَوَل أخلاقي ليس إلا.

ما أكثرهم ضحايا البسطاء وما أغفل العيون عن القتلة وهم يسرحون في طول البلاد وعرضها.

***

- عفراء..
- .....
- عفراء.. هذا أنا وحيد..
- وحيد.. وحيد. اندفع صوتها بشهقة بكاء متقطعة؛ خشيت أن تصدق قلبها فكذبت أذنيها.
- نعم وحيد؛ أرجوك أن تهدأي؛ أنا أسمع تنفسك المتهدج حتى هنا..

أجهشت بالبكاء فاقدة لقدرتها على النطق سوى ترديد اسمه بلهفة.

- أنا بخير يا عفراء؛ كيف حالك أنت؟

لم تسمع إجابته و لم تقل شيئاً؛ لقد تداعى جسدها أرضاً وبكت كل أيام الصبر والتحمل؛ أخرجتها شهقات متقطعة ودموع أغرقت الهاتف الذي سقط من يدها المرتخية سعادة لأول مرة من عمر طويل.

كانت تتذوق بكاء الفرح كم هو لذيذ؛ وحين عاد رنين الهاتف حاملاً رسالة من وحيد هذه المرة:

(سأعاود الاتصال بك حين تهدأين؛ لا تبكي كثيراً.. فأنا مشتاق إلى عينيك الصافيتين).

تناولت الهاتف بلهفة مرتعشة وكتبت:

(أين أنت.. سآتي إليك.. أنا ما زلت في صنعاء).

عاود الاتصال بها وهذه المرة ردت بشوق يجرف أمامه كل شك أنه خيال أو حلم؛ تكومت حول نفسها في ركن الحجرة كمن يخشى أن يستيقظ من حلم:

- أخيراً يا وحيد؛ حمداً لله على سلامتك؛ كم كرهت الحياة في غيابك.. لن أسامحك..

أطلق ضحكة متعبة وهو يقول:

- كان الأولى ألا أعود إذاً..
- لا تقل ذلك؛ قد لا أسامحك على غيابك كل هذا الوقت؛ لكنني كنت لأقتلك إذا لم تعد.

عاد ليضحك بصوت أعلى.. لكم يعشق جنونها الدافئ هذا؛ هي القادرة على انتزاع ضحكاته وهو في أشد حالات كربه:

- ما كنت لأتركك لأحد يا عفراء؛ كنت أنوي أمراً وكان قدر الله النافذ علينا والحمد لله. حدثيني عنك؛ عن كل شيء..
- قد حدثتك كل يوم.. كل يوم كنت أرسل لك كل شيء أريد أن أقوله لك؛ إذا فتحت بريدك ستصل إليك كل رسائلي؛ كلها تقول أمرين: أني أحبك.. وأني أنتظرك. قل لي أنت كيف هي صحتك؟ أما زال هناك ما يؤلمك؟
- ليس في هذا الجسد الكثير مما يؤلم يا عفراء.. ساقي فقط أستخدم لها عكازاً؛ يؤلمني أكثر أن لا شيء تغير في حالنا.

- سيتغير يا وحيد؛ كل شيء سيتغير يوماً ما؛ لا شيء يـــدوم أو يبقى ثابتاً حتى الجبال؛ كل شيء في صنعاء يقـــول إنهـــا ستنفجر. ثلاثة أعوام مرت من روح هذا الشعب ولا بد أن يعرف قريباً طريقه.
- سيعرف.. إنما وقد بلغت خسائره كماً لا يمكن أن يُنسى.

***

طلب وحيد من شائف أن يخبر زوجته وأخوته أنه أفاق من غيبوبته وأصبح قادراً على محادثتهم هاتفياً؛ كان يخشى أن يتفاجأوا باتصاله؛ أن يبكوا أو يؤلمهم الفرح، فالفرح الغائب دوماً يصبح مؤلماً كالحزن تماماً حين يأتي بغتة بلا مقدمات تبشر به..

ربما هي قلوبنا التي لم تعد تحتمل سوى ما اعتادت عليه.

غرقت عيناه بالدموع وهو يتخيل والدته هي من ترد على مهاتفته كما اعتاد في ما مضى؛ تذكر حين طلبت منه رقماً لهاتف ثابت يبقى في حجرتها كي ترد عليه في اتصالاته وهو يقيم في صنعاء بعد تركه إب؛ تذكر رفضها للهاتف المحمول وإصرارها على ذلك الهاتف قائلة إنها تشعر أنه في طرف الخيط الآخر مثلها حين تحادثه.

كيف تبدو مدينته دون هذه الأم؟!!

بل كيف سيأتي يوم يعود فيه إلى منزل لا تستقبله أمه بعطر حنانها فقط؟!!

غالب دموعه وهو ينتظر صوتاً في الطرف الآخر؛ كانت زوجته "سميرة" كما تعودها قوية رابطة الجأش في أحلك الظروف؛ أتاه صوتها:

- وحيد؟

همس بصوت مخنوق العبرة:

- نعم يا سميرة.. كيف حالكم جميعاً؟ اشتقت إليكم.

واختنقت كلماته..

- نحن بخير.. كلنا؛ حمداً لله على سلامتك؛ نحن بخير ما دمت عائداً إلينا بخير.

اختنقت بالبكاء فتخاطف الأولاد الهاتف من يدها؛ كلما نطق وحيد باسم أحدهم رد آخر كان قد سلب الهاتف من أخيه.

ضحك وحيد لزقزقة أصواتهم ولهفتهم؛ السعادة التي تشع من أصواتهم بثت فيه الحياة كأنما عادت إليه الروح لتوها.

- رحمة الله عليك يا أمي.. أثق أن هؤلاء الصغار ملأوا فراغ غيابي في حياتك قبل رحيلك.

***

(8)

من يموت لا يحدث ضجيجاً.

النائحون لخسارتهم فقط من تعلو أصواتهم بالبكاء.

في صباح يوم الثاني من ديسمبر لعام (2017) دخل شائف الحجرة التي يرقد فيها وحيد في منزل صقر. كان طلق المحيا لا تُخفى سعادته وهو يقول:

- الأخبار من صنعاء مفرحة يا وحيد؛ لقد انتفضت مدينة القبور؛ أشعلها "صالح" ضد حلفائه بعد أن ارتوى مهانة منهم؛ أترى يا وحيد لعل الله أراد لهذا الوطن الفرج؛ لقد دفع الناس الخوف من صدورهم وخرجوا يهتفون في الشوارع: لا حوثي بعد اليوم.

لقد شبع الشعب جوعاً وقتلاً ومرضاً وقرر أن يصنع غده وينتفض.

ابتسم وحيد بفتور قائلاً:

- كنت لتوي أتصفح أخبار مواقع التواصل؛ لكنها هول الكذب والمبالغة فيها لم تعد محط ثقة؛ لقد أصبح الخبر الصادق فيها كالشعرة البيضاء في الثور الأسود كما يقال..
- لا عليك من هذه المواقع يا وحيد فكلنا نعلم أن هذا العالم زائف في كل شيء؛ الأخبار تأتي من مأرب ومن داخل صنعاء المحاصرة نفسها؛ لن يعدم الناس طريقة لإخراج ما يجري. بغض النظر عن كل ما اقترف هذا الرجل، أتمنى أن يصمد في وجه هذه الجماعة وأن تلتف جماهيره حوله.

أطلق وحيد ضحكة خافتة وهو يقول:

- أي جماهير؟!! هذه الجماهير بالذات صنعها للمهرجانات وليس للقتال؛ التي للقتال سلمها للحوثيين منذ ثلاث سنوات وقد أبيد منها الكثير.

نهض وحيد من فراشه بصعوبة؛ لم يعتد بعد على الوقوف والسير بدون عكازه وما زالت ساقه أضعف من أن تحتمل جسده الثقيل؛ وعاد ليقول:

- رغم كل ما صنعه "صالح" في هذا الوطن من إذكاء الخلافات، إلا أن خطر الهاشمية السياسية على هذا الشعب وتماسكه أشد وأنكى؛ لقد ربى أفاعي الطائفية المذهبية وستلتهم رأسه قريباً؛ الحوثية لا تقبل أي شريك يؤمن في قرارة نفسه بسلطته هو؛ وليس بولايتهم هم؛ انظر إلى أتباعهم.. أي ولاء يحملون لفكرة السيد وحق الولاية.. شيء أقرب للخيال كأنما يمارس فيهم شيئاً كالسحر أو غسيل الأدمغة.

رد شائف بغرابة:

- لقد ثبت هذا فعلاً؛ فدعك من نظرتك المجردة للأمور؛ قد لا تؤمن أنت أو تصدق لكنهم فعلاً يقعون في شرك السحر، والسحر حقيقة ثابتة في القرآن؛ أنت بفكرك الواقعي تؤمن فقط بما تريد؛ تؤمن بالتنويم المغناطيسي ولا تؤمن بالسحر؛ منذ القدم والسحر الأسود والشعوذة وسيلتهم لفرض سلطتهم.. شيء توارثوه كوسيلة للسيطرة على العقول؛ لقد حدث أن الخميني ذاته استخدم هذه الطرق في حرب العراق.

- لا.. ليس الأمر إيماناً أو تصديقاً؛ إنما كيف سيخضعون كل هذا القطيع للسحر. الأمر أكبر من هذا؛ إنه الجهل من يتحكم بعقول كل هؤلاء الذين يندفعون للموت بشراهة عجيبة. البعض مؤمن كإيمان أم "يحيى" التي ترجمت خطبتها الشهيرة وهي تقف على أشلاء ولدها إلى اللغة الفارسية؛ كانت تودعه برباطة جأش وتوصيه أن يبلغ أجداده الحسن والحسين ومحمد بن عبد الله السلام منها؛ وأن مفتاح الجنة في يمينه ما دام قاتل المنافقين الذين هم نحن. هذا الشعب المنكوب بمزيد من الجهالات والضلالات، كانت تنقصه مظلومية كربلاء التي لا يعلم نصف الشعب اليمني عنها شيئاً وما الذي حدث فيها. ما يحدث للأتباع هو غسيل أدمغة ممنهج باسم الدين وقداسة السلالة.

أطلق شائف زفرة محرقة وهو يقول:

- أتفق معك في هذا؛ إنه الجهل مرتع الضلالات الخصيب؛ وهو للأسف مقرون بالإنسان اليمني الذي صار ضحية الأئمة منذ أكثر من ألفٍ ومئتي عام؛ لقد حرصوا على بقاء عنصر الجهل كأقوى أسلحتهم من أجل حكم اليمن جيلاً بعد جيل.. وها هم عادوا كأشد ما يكون الضلال والاستبداد.

***

قُتل "عفاش"؛ قَتل الحوثيون الزعيم صالح وانطفأت انتفاضة صنعاء.

قد يتطرق التاريخ يوماً إلى ذكر تلك المشاعر المتضاربة التي اجتاحت اليمنيين حين شاهدوا جثمان الزعيم "علي عبد الله صالح" عندما تناقلت وسائل الإعلام ومواقع التواصل مشاهد مقتله بالصور ملفوفاً في بطانية قد تلوثت بفتات من أشلاءه فأنكرها محبوه وأعداؤه غير مصدقين أنها له؛ حتى ألحقت بمشاهد فيديو إمعاناً في الإثبات وتحطيماً لانتفاضته الصالحية من أجل قصوره وأمواله وكرامته التي ديست مرة بعد مرة.

لقد عمّ الحزن والصدمة قلوب مناوئيه ومحبيه على حد سواء لخبر مقتله بتلك الطريقة السهلة كأنه لم يكن حليفاً لهذه الجماعة الفاشية.

اقتحموا منزله بعد محاصرته وتم قتله ونهب كل ممتلكاته وكل ما احتوى القصر من نفائس وحتى الملابس.

لقد حزن حتى مبغضوه؛ حزن أولئك الذين تمنوا أن تعلقه أكفهم على حبل المشنقة بعد محاكمة عادلة لجرائم ارتكبها في حق اليمنيين طيلة سنوات حكمه المظلمة؛ وجرائم ثورة 11 فبراير التي أزهقت أرواح الشباب السلميين في مخيماتهم حرقاً وقتلاً؛ وجرائم تسليم الوطن لجماعة الحوثي المتطرفة التي قتلته في النهاية.

كان لمقتله رهبة انقبضت لها الصدور، كأنما كان عصياً على الموت وهو الذي أذاقه للكثير.

إنها تلك الميتة السهلة على أيدي الرعاع الذين أمسكوا به حياً بعد أن أعطوه الأمان للتحاور معه.

قُتل عفاش الدم، ولا يهم بأي طريقة شنيعة قُتل. ما يهم أن من قتله هم أولئك الذين رباهم كالأفاعي لقمع اليمنيين وقهرهم وأدخلهم عاصمة الدولة وسلمهم زمام الأمر انتقاماً من ثوار 11 فبراير السلميين الذين هتفوا في وجهه: ارحل صالح فأنت عمل فاسد.

صالح الذي أفنى عمره في بث الخلافات والنزاعات بين قبائل الوطن وأحزابه، ها هو برحيله المباغت كالصاعقة يجمع شمل الشعب في هدف واحد هو محاربة جماعة الحوثي..

قد تتلاشى بمقتله جميع التناقضات والفوارق بين الشعب ويجمعه طرف واحد هو الوطن في مواجهة عدو واحد هو الحوثية الفاشية التي لم تراعِ أي عرف أو قيم.

***

أطل وجه صقر من باب الحجرة وهو يتهلّل فرحاً وكأنما انقشع عنه كل اكتئاب الغربة وتعبها؛ رفع شائف بصره نحو صقر وهو يقول بضيق:

- السعادة تنطق من كل خلية وحركة في جسدك.

أطلق صقر ضحكة مجلجلة وهو يقول:

- أنا لست كائناً طيب القلب مثلك؛ أنا أحقد سريعاً وكثيراً بذلك القدر الذي أحب فيه أيضاً؛ لا أحب الغفران ولا أسامح؛ وأناصب العداء كل حقراء الأرض حتى من لا أعرفهم.

رغم أني أعرفهم منذ أول وهلة في أول لقاء؛ كل محاسن الأنذال ليست وجاء للحظة نذالة منهم؛ تباً لهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً وكل ما قدموا بين يدي لحظة وجع صارت كلها مجرد هباء؛ كيف تغفر دموع سفحتها نذالتهم وهم يعبثون؟!

نعم أنا سأحتفل لموت طاغية فاسد قُتل على يد طاغية أشد فساداً؛ فبسبب سياسة هذا الرجل قضيت نصف عمري في غربة عن أهلي ووطني.

ما لا أفهمه هو كيف تحزن أنت لمقتله؟ أليس هو من تسبب في خراب الوطن وتشريدك أنت وكل أعضاء حزبك في المنافي؟

أليس هو الذي صنع حليفه الذي اعتقل شباب حزبكم ورماهم في السجون وأزهق أرواحهم تحت التعذيب؟

نهض شائف من الأرض وهو ينفض ثوبه الذي تجعد من طـــول الجلوس وقلة الاهتمام وقال بزفرة محرقة:

- لست حزيناً عليه وإن كانت نهايته مؤثرة وفيها عبرة لكل ذي عقل؛ لكنها بفضل الله أتت على يد حليفه و لم تأتي على أيدي شباب ثورة 11 فبراير. ما يؤلمني ويجـــب أن يؤلمك هو ذلك الأمل الذي انطفأ في انتفاضـــة صـــنعاء؛ الخوف الذي زرعه في قلوب الناس أثمر حين احتاجهم؛ لم تخرج كل تلك الحشود التي كان يجمعها كالحـــاوي في ميدان السبعين حتى للمطالبة بجثمانه كي يدفن كـــرئيس دولة لثلاثة وثلاثين عاماً؛ حتى أن النساء خرجن ليطالبن بدفن الجثمان بعد أن خاف الرجال؛ هل تدري ماذا يعني هذا؟

أنه يعني أن هذا الشعب ماتت فيه الرغبة في الحياة أو المقاومة من أجلها.

أطلق صقر ضحكة أخرى إنما بسخرية أشد وهو يقول:

- وكأنك ترى الشعب هو حزب المخلوع والمخلـــوع هـــو الشعب؟!! إن الذين سيحررون صنعاء وكل الـــيمن هـــم أولئك الشرفاء الذين لم يسلموها لمليشيا الحوثيين بتحالفهم معها؛ لقد تلوثت أيدي حزب المخلوع بدماء أطفال تعـــز وتقيأت أفواههم بمناصرة هذه الجماعة الفاشية.

ولن ينال شرف الحرية إلا الشرفاء.

وضع شائف كفه على كتف صقر المشدود من الانفعال وهـــو يهمس بصوت ضعيف:

- عودة الوطن يا صقر تحتاج لنا جميعاً؛ كل اليمنيين دون حزبية وانتماءات إلا لهذا الوطن؛ لقد أنهك الناس الحرب والفقر والتشرد والقتل الذي يطالهم من الأرض ومن السماء.

هذا الشعب مهدود ولا تنقصه الأحقاد والتصنيفات؛ إذا لم يتحد الجميع لن ننتصر.

لهذا تفتح مأرب ذراعيها لكل من أتى موالياً للشرعية من أجل استعادة الوطن؛ وكل من يفكر بالتمرد على شرعية الدولة يتجه نحو متمردي المجلس الانتقالي في عدن..

إنه فرز مؤلم في كل حال.. لكم تمنينا أن نجتمع تحت راية واحدة لا تعبث بها أهواء خارجية؛ لكنه عشق السلطة وأطماع الدول التي تفرض سياستها رغماً عنا.

***

الأيام التي تلت الثاني من ديسمبر كانت فاجعة بحق.

خلال أسبوع واحد سقطت أحلام صنعاء أرضاً كما تسقط صواريخ التحالف على مبانيها؛ سقطت وتشظّت كسفاً موجعة في كل بيت فقد تحولت المليشيا إلى قطيع مسعور يسوقه الانتقام من هذه الانتفاضة الهوائية..

داهمت عشرات المنازل واعتقلت المئات من منتسبي حزب الرئيس الراحل بعد تصفيته بتلك البشاعة؛ اعتقل المئات لمجرد الاشتباه؛ وازدحمت السجون مع أسوأ معاملة وهدر للكرامة.

ضاعت حرمة البيوت بعد ابتكار جيش نسائي هن "الزينبيات" مهمتهن الفتك بالنساء في بيوتهن في ظاهرة لم يعهدها المجتمع اليمني المحافظ.

قُتل ما يقرب من ألفي شخص شاركوا في انتفاضة هشة غلبتها انتفاشة مليشيا لا تقيم للعهد والتحالفات أي وزن.

اللافت للانتباه في تلك الأيام السوداء هو غياب أي توثيق لاستباحة صنعاء ومنازلها بأي شكل. فقد تم حجب كل وسائل التواصل عن اليمن وعزلها عن العالم بذات الطريقة التي مارسها الأئمة قديماً..

حتى الأرقام المهولة للقتلى تسربت قصصاً مروعة دون جثث أو مقابر أو جنائز.

قصصاً يرويها شهود عيان كيف داهمت المليشيا حتى

المستشفيات وسحبت أجساد الجرحى من على أسرتهم إلى أماكن مجهولة.

زينب كانت أحد أولئك الشهود على حقبة الفاجعة تلك؛ ممرضة تعيل طفليها وتنتظر زوجها المعتقل في سجون الحوثيين.

في أحد الصباحات المروعة كانت زينب في مناوبتها للعناية بالمرضى والجرحى الذين امتلأ بهم من جنود وضباط الحرس العائلي لصالح أثناء مواجهاتهم مع الحوثيين.

وعقب القضاء على صالح وإنهاء انتفاضته؛ هجم المسلحون على المستشفى مع قيادي حوثي؛ كانوا يفتحون حجرات المرضى ويقتادون الجرحى من على أسرتهم حتى أولئك الذي في العناية المركزة وجراحهم تنزف أو الذين تقرر بتر أجزاء من أجسادهم.

وقفت زينب في حجرة العناية المركزة للاهتمام بمرضى العمليات الجراحية؛ ترتجف كورقة في مهب الريح خوفاً من بطش المسلحين الحوثيين الذين علت أصوات صراخهم وهم يقومون بسحل الجرحى.

أحد الضباط على سريره أبعد جهاز التنفس عن وجهه وهو يصيح:

- أتوسل إليك لا تتركيهم يأخذوني؛ اقتليني أنت ولا تتركيهم يأخذوني.

بكت لبكائه فهي أعجز من أن تساعده؛ طلب منها الماء فقالت له بشفقة:

- شربك للماء سيقتلك، لتوك خرجت من عملية جراحية؛ ستنتفخ بطنك وتتسبب بهلاكك.

توسل إليها مراراً كلما تعالت الأصوات خارجاً وهو يقول:

- الموت بهذه الطريقة أشد رحمة مما ينتظرني.

ناولته قنينة الماء فتجرعها كلها بسرعة.

اقتحم المسلحون الحجرة وسحبوا الضابط أمام عينيها الذاهلتين:

والضابط يصيح:

- سأموت أيتها الممرضة أليس كذلك؛ ليقتلني الماء عوضاً عن الجحيم الذي ينتظرني.

بكت بخوف فنهرها أحد المسلحين صارخاً:

- ما بك يا امرأة؟ هذا أحد الخونة ومطلوب للعدالة.

أي عدالة تبيح هذه الوحشية!! ممرات المستشفى اختلطت بالأنين والصراخ وأثر الدماء التي سالت من الجرحى في طريق الناس وهم يتجنبون المسلحين في غزوتهم ضد الجرحى العزل.

لقد كانت أيام استبيحت فيها صنعاء للسلب والقتل وليس الأمر بالجديد.

صنعاء تقفز إلى ما قبل ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ووعد الزعيم المخلوع صالح بأن يحول اليمن إلى أفغانستان أخرى قد تحقق فعلاً.

فالجماعة التي تعهدها برعايته صارت غولاً تبتلع كل أثر للحياة في طريقها كالوباء.

تتشابه جماعة الحوثية وحركة طالبان؛ فكلتاهما جماعة دينية مسلحة جعلت العنف والقمع طريقها في الوصول إلى بسط نفوذها. كما أنهما صنيعة أيدٍ خبيثة لتتسببا في خروج بلديهما عن قطار الحياة والتاريخ ردحاً طويلاً.

لكن ذلك الهدف التي يحمله الحوثيون بدا واضحاً أن يداً متمكنة تسانده حتى النهاية، وأن "صالح" كان مجرد حامل لهذا الوباء وإزاحته كانت أمراً معداً له حتى يحين وقته فقط.

* * *

(8)

هل له لون هذا الحزن؟

هل له طعم أو صوت أو رائحة؟

لماذا صار يشبه الماء في وطني؟

يمطر غزيراً وتنفجر منه صخور القلوب.

عفراء

البرد يأتي من الداخل..

لا علاقة للشتاء بالأمر؛ الشتاء كبقية الفصول، كما أتى سيذهب.

البرد يأتي من أعماقنا الفارغة؛ وهذه الرعشة التي تجتاح البدن بفعل ريح الخواء التي تجوب جنبات الروح المنطفئة بلا جمر الأمل أو توقد الهدف أو اشتعال الأحلام.

بارد هذا القلب كشارع فارغ ذهب العابرون منه وبقيت الأرصفة مليئة بالوحشة.

كمدينة عامرة كان هذا الداخل؛ فطاف عليه شبح الحرب فصار خراباً.

يا لهذا البرد حين يأتي من الروح.. وقد صارت مشقوقة بلا دثار.

يا لبرد الذكريات فيك يا صنعاء بعد كل هذا الخراب والوحشة الممتدة في شوارعك الحزينة.

أنا في صنعاء بعد غياب يزيد عن ثلاث سنوات عن مدينة طالما شعرت أنها نصف روحي الثاني كما هي عدن نصفها الأول؛ صنعاء ليست مدينة يا وحيد..

صنعاء هي اليمن؛ كل اليمن.

لكنها أسيرة وككل الأسيرات يُستباح فيها كل شيء حتى الهواء الذي تتنفسه؛ وجوه الناس لم تعد هي؛ إنها الحرب تصنع وجوهاً مختلفة للبشر لا تشبه وجوهاً صنعها الحب يوماً.

كنت أجوب شوارعها الخالية من رائحة الحياة والأمان كأني أبحث عن جزء مفقود من حياتي لا أدري كيف غيبته ثلاث سنوات فقط.

كل شيء بدا باهتاً في مدينة جميلة كللها سواد الإمامة بنسختها المطورة والأشد قتامة.

وكأني لم أكن أبحث فيها سوى عن رائحة لقاءاتنا القليلة في مكتبك، عشائنا الصامت الخجول ذات مساء في أحد المطاعم رغماً عنك، وقبلتنا الوحيدة التي فرقت فينا أكثر مما جمعت بيننا من تنافر الأفكار.

كنت أطوف مدينة الحب التي صارت مدينة السلاح والأشباح؛ ورغم أن هناك احتقان غضب تنطلق شراراته في الهواء تمتصه سياسة الرئيس السابق "صالح" كيلا ينفرط عليه زمام الأمر داخل مدينة كان يحركها بإشارة من إصبعه قبل أن يسلمها لمليشيا الحوثيين.

لكنه انفرط في مصادمات مباغتة من أجل الاستيلاء على جامع الصالح، تلك التحفة المعمارية التي بناها "صالح" تخليداً لاسمه فانتزعته مليشيا الحوثي كسبب للإطاحة بحياته كلها.

توترت صنعاء كلها مع زخات الرصاص وتوسعت الاشتباكات وشارك طيران التحالف في قصف أهداف كعادتها لا تصيب إلا الخطأ.

الرصاص الذي انهمر على جدران المنـــازل حاصـــر أســـراً كثيرة علقت داخل اشتباكات دموية بين المليشيا والقوات الموالية لصالح.

أيام قليلة صيرت صنعاء مدينـــة منكوبـــة بحـــرب الشـــوارع والتصفيات.

كان علينا العودة إلى إب، فصنعاء على فوهة بركـــان ومنـــزل الرئيس السابق محاصر مع بيوت أقاربه؛ عدت إلى إب بعد شـــهر في صنعاء بدا لي كعمر طويل من الذكريات والألم، بدّده فرح عودتـــك إلينا من غيبوبتك.

لم تواتِني الشجاعة كي أزور عائلتك حين قـــررت العـــودة إلى عدن؛ خشيت أن تلتقط حاسة الأنثى في زوجتك هالة الحب الـــذي يربطني بك ويسيرني إليك؛ ولا تقل إنها مبالغة..

كلا يا وحيد إن للحب تلك الهالة العجيبة الـــتي يستشـــعرها أشخاص معنيون؛ ولا أظن أن هناك شخصاً معنياً بك كزوجتـــك؛ أشعر أني لو نطقت اسمك أمامها فستعرف أن حروف اسمـــك هـــي مدارات كوني كله.

سأترك إب وفي نفسي ذلك العجب منها. ما كل ذلك السلام أو الاستسلام الذي فيها؛ كأن أحداث صنعاء الدامية لا تعنيهـــا؟!! مقتل الزعيم صالح الذي هتفت له جموع المدينة زمناً طويلاً "بـــالروح بالدم نفديك يا علي"..

إب هذه كجمر دافئ تحت رماد الفساد وبيع الضمير، جمرهـــا يبعث الدفء والخدر في الأجساد ولا يحرقها فتشتعل ثورة ضد هـــذا الرماد الثقيل.

إذا كانت صنعاء أخت القبور فإب هي القبور بذاتها؛ لكنها قبر للجمال؛ بل هي قبر لكل شيء جميل.

في عودتي إلى عدن رافقتني صديقتي "أروى" وأولادهـــا؛ أروى زميلة الدراسة ورفيقة العمر؛ أولادها في مثل عمر أولادك يا وحيـــد ولو كنت أنا أنجبت من زواجي الســـابق لكـــان لي أولاد في مثـــل عمرهم.

لا أشعر بمدى مرور العمر وخسارات الحيـــاة إلا حـــين أرى رفيقات الدراسة وصديقات العمر وقد قطعن أشواطاً كبيرة في الحياة وأنا التي أنتظرها وقد لا تأتي..

فرق كبير بين شخص يعيش بما تأتّى له؛ وبين شخص ينتظـــر العيش الذي يريد.

الأول عاش الحياة فعلاً والثاني سيموت قبل أن يعيش..

فهل سنلتقي أخيراً يا حياتي التي أريد.

***

وصلنا مدخل عدن..

تم إيقافنا مع عشرات المسافرين الذين يتكاثرون مع مرور الوقت في نقطة "مصنع الحديد" على المدخل الشرقي لمدينة عدن. كانت قوات الحزام الأمني تخضع الجميع للتفتيش والتأكد من هوياتهم؛ سمحوا لي بالدخول وبقيت أنتظر السيارة التي تقل صديقتي وأولادها؛ كان الوقت مبكراً فقد كان سفرنا عقب صلاة الفجر؛ إنه شهر ديسمبر قارس البرد في الجنوب ولا يُحتمل في الشمال؛ لولا أحداث صنعاء الساخنة بالرصاص والانفجارات لماتوا برداً قبل الموت.

أما في إب فقد تجمد كل شيء برداً حتى الرغبة في الثورة.

كنت أعرف أن قوات الحزام الأمني تقوم بإيقاف الشماليين أثناء دخول عدن وتتعنت في معاملتهم دون أسباب واضحة؛ لكن ما يحدث مؤخراً جعلني أشعر أني على أحد معابر فلسطين وليس نقطة مرور داخل دولة واحدة.

تعرقل مرور صديقتي أروى وأولادها ساعات طويلة مرهقة في الشمس، وكان البعض يردّدون تصريحاً لأحد المسؤولين بأن هناك أوامر من قوات التحالف يمنع دخول الشماليين إلى دولة الجنوب..

فهل التحالف أتى لإعادة الشرعية إلى البلاد أم لتحقيق الانفصال؟ لم نعد نفهم!!

معابر الفرز والتصنيف التي تضيق الخناق على تنقلك وتجزئ وطنك إلى أشلاء؛ تعثّرك في حلك وترحالك وكأنك عدو أو متسول

لحقوقك.. إنه الشعور الأقسى من غربتك في بلاد الآخرين.

صار الرعب أن تعيش في هكذا وطن مجزأ؛ والخوف أن تُبعد عنه قسراً سياط ينخلع لها قلبك كل وقت.

نقاط للتفتيش والفرز من أقصى شمال الوطن وحتى أدنى جنوبه؛ كلها صُنعت لإذكاء العنصرية والطائفية وتقسيم الوطن الواحد إلى شراذم ضعيفة.

ليست نقاط الحزام الأمني فقط من تهين هذا اليمني البسيط بالذات؛ هناك نقاط الحوثيين على كل الطرق المؤدية إلى مأرب؛ فهناك تتم تجارة البشر على أوسع نطاق ومن لم يفتدِ نفسه بمبالغ مالية يتعفن في السجون لفترات زمنية طويلة.

بعد محاولات مع رجال الأمن على معبر منطقة "الحديد" سُمح للعائلات بالمرور والدخول إلى عدن نظير مبالغ مالية تافهة.

وطوال الطريق وأروى تردد ببحة متشنجة:

- الحمد لله.. الحمد لله. أنهم هنا يقبلون مبالغ صغيرة. لن تصدقي يا عفراء ماذا يحدث في نقاط الحوثيين في الطريق إلى مأرب بالذات؛ إحدى قريباتي اعتقل ولدها في نقطة "أبوا هاشم" الشهيرة في رداع؛ هناك يفرزون البشر كمواد للتجارة؛ بعد أن علموا أن والده مغترب في المملكة طلبوا من أسرته مبلغاً كبيراً لإطلاقه. إنهم يبتزون المغتربين بمبالغ مهولة ويوقفون الجميع بدون أسباب مقنعة؛ بل ويودعونهم سجن القلعة أو سجن الميدان لفترات زمنية طويلة حتى يطالب بهم أهاليهم.

لا أظن أننا سنصل إلى حال أسوأ من هذا أبداً.

منذ إقامة ما يُسمى بالمجلس الانتقالي في عدن والأمـــور تـــزداد سوءاً؛ أيدٍ خفية تعيث فساداً في هذه المدينة الساحرة؛ تغتـــال فيهـــا خطباء المساجد وتقيم المعسكرات المتمردة ضد الشرعية.

صارت فكرة انفصال الجنوب شماعة اللصوص والخارجين على الدولة تساندهم مطامع في التحالف باتت معروفة.

لن ينفصل الجنوب رغم تكراره أسطوانة الانفصال منذ الوحدة؛ ذلك لأن الانفصال ورقة بيد الفاشلين دائماً؛ يلجؤون لأسوأ أساليب التعبير عن رفضهم لوحدة صارت حقيقة وهم مزيفـــون. يـــا لهـــذا الجنوب الذي عجز عن الانفصال مثلي!!..

وكم أشبه مدينتي.. أفكر بالانفصال والابتعاد عنك وكـــل ذرة في روحي هي جزء منك.

***

في الثالث عشر من ديسمبر لعام 2017 قُصف مبنى الشرطة العسكرية في حوالى تسع غارات، أسفرت عن مقتل العشرات من المعتقلين المختطفين الموجودين في سجن المبنى كدروع بشرية في منطقة عسكرية مستهدفة من طيران التحالف.

تم قصفهم بعد أن تم نقلهم من السجن المركزي وسجون أخرى لهذا الغرض.

وضع ما يقرب من 240 معتقلاً عرضة للموت الأقسى بانتظار الموت..

تقتلهم طائرات التحالف؛ ويقتلهم الحوثيون.

ولا بواكي لهم بما يكفي لأحداث ضجة فهم مجرد ضحايا وأرقام بلا أسماء مرموقة.

أكثر من 240 معتقلاً انتظروا الموت برعب أصم؛ حاول الكثير الفرار وقت القصف لكن شهود عيان نقلوا أحداثاً تشبه الخيال عن مسلحي المليشيا الذين أعادوهم بالرصاص إلى داخل مدرسة الشرطة العسكرية كي يواجهوا الموت قصفاً.

ليست المرة الأولى التي يضرب فيها التحالف المعتقلات التي أنشأها الحوثيون والتي جمعوا فيها مختطفين أغلبهم كوادر لحزب الإصلاح فمجزرة "هران" ليست ببعيدة.

ولعل هذا يسمى العمل المشترك لتحقيق الهدف.

(محمد القطوي) نائب رئيس فرع الإصلاح في منطقة "بعدان"

و"أمين الظبياني" مثالان صادمان لمآل من يُعتقل بلا جـــرم ســـوى الانتماء أو القرابة لمنتمٍ؛ القطوي اختطف من قريتـــه وأودع أحـــد معتقلات مدينة إب ليتنقل بعدها من معتقل إلى آخر حتى وصل أخيراً إلى معتقل مدرسة الشرطة بانتظار التصفية كدرع بشري ولتخضـــع جثته للاعتقال من جديد من أجل المقايضة بأسير حرب للمليشيا لدى الجيش الوطني.

"أمين الظبياني" كانت جريمته أن أخاه محمد الظبياني يعمـــل في قناة تلفزيونية معارضة للانقلاب؛ اختُطف من مقر عمله وظل عامـــاً كاملاً تحت سياط التعذيب حتى قُتل ضمن شهداء قصف المدرســـة العسكرية.

سينسى الناس مشهد الأخ المذيع "محمد الظبياني" وهو يتلو نبـــأ مقتل أخيه ضمن شهداء القصف في نشرة أخبار يومية تعدد أوجـــاع اليمنيين؛ ستُنسى دموعه حين نعى أخاً له آخر سبق أن استشـــهد في مقاومة الجيش الوطني في العام الفائت؛ ينسى البشر وذاكـــرة هـــذه الأرض لا تنسى.

فهذا الموت الذي ابتكره شياطين المليشيا مختلف؛ يمـــوت فيـــه المعتقلون مئات المرات وتموت أسرهم في المنازل خوفاً وهلعـــاً علـــى أبنائهم كلما تجدد القصف على تلك المناطق المرصـــودة كأهـــداف عسكرية.

إنه الموت الذي تترقب فيه الموت حين يهبط باتفاق بين شياطين الأرض وطيران الأشقاء.

***

(9)

تتضح حجم المأساة بعد أن يعم الصمت وتنقطع أصوات المدافع.

حينها لملموا أشلاء هذا الوطن ودفنوه سريعـًا.

زينب

بعد أشهر طويلة أيامها الحزن ولياليها القلق وساعاتها الـــدموع وثوانيها الدعاء..

ستلتقي زينب زوجها أخيراً من وراء السياج، إنما لـــن تفصـــل روحيهما قضبانهم أو طغيانهم.

أخيراً وجدته بعد بحث طويل وآمال، كلما رفعـــت ســـقفها هدمتها الأخبار الكاذبة والمعلومات الزائفة ومماطلات المليشيا الـــتي لا تنتهي.

ما أن ميزت صوته قادماً من بعيد حتى تلاشت معانـــاة تلـــك الشهور الطويلة؛ نسيت حين نزعها أهلها من بيتها في صنعاء وعادوا بها إلى ذمار محاولين إقناعها بالانفصال عن زوجها؛ نسيت ذلك الهلع الذي يعاني من تبعاته صغارها حتى اليوم؛ نسيت حتى ضـــيق الحيـــاة بمجرد تردد صدى صوته فقط.

يا الله.. هي لا تكاد أن تصدق!!!

هل هذا هو.. زوجها.. كأنه هو..

يقترب بطيئاً على ضربات قلبها المتسارعة، فوق بساط نظراتهـــا الملتاعة والخائفة..

إنه هو.. من ينتفض لخطواته المتعثرة نـــبض قلبـــها حزنـــاً ومساندة.

لقد أخذوه ذات صباح من بين أطفاله بقوة السلاح وجبروت الطغاة؛ لم يراعوا بكاء طفليه وتشبثهم بساقي والدهم و لم يراعوا أنه مستسلم لإرادتهم دون مقاومة خوفاً على طفليه من فاجعة اختطافه أمام أعينهم بكل تلك الوحشية والهمجية..

لأشهر وهي تبحث عنه.. الآن ماذا تبقى من رفيق الدرب سوى بقايا محطمة؟!! يحاول الابتسام في وجهها عبر السياج والقضبان والإحباط والألم..

همس بوجع وهو يرى عينيها الدامعتين وصدمتها لرؤية هيئته المزرية:

- أنا بخير يا زينب لا تحزني.. كيف أنت والأولاد؟

أجابته بفيض الدموع لعلها تكفي مشقة الحروف وتصف خوفها وألمها مما يلاقيه في سجون الاعتقال..

كل شيء فيه يقص حكاية تعذيب لا يُحتمل هنا؛ جسده الذي تعرى من تمزيق الضرب لا تستره إلا الجراح؛ يرتدي فقط كسوة تيبست عطشاً للراحة من العذاب.

نحل جسده وبهتت عيونه انتظاراً للإفراج؛ وظمأت روحه للحرية فذوت عطشاً من وعود الشرعية والجلاد.

همس بثقة محاولاً تخفيف صدمتها:

- كفكفي دموعك من أجلي وتجلدي من أجل الصغار؛ سيفرجها الله؛ ثقتي به ليس لها حدود..

ابتسمت برضا لكلماته المتفائلة؛ من أجل هذا اختارته بعد أن خيرها أهلها بينهم وبينه؛ تركت أهلها بعد أن رفضت إصرارهم على فكرة الطلاق منه وعادت إلى صنعاء وحيدة إلا من أملها أن تعثر عليه

في أحد السجون وأن تعيّن محامياً في محاولة لإخراجه.

بحثت عن عمل تعول به نفسها وطفليها في حياة لا يلتفت فيها أحد لهموم الآخرين لثقل الهموم التي طحنت البلد كله.

حاولت البحث عن أي عمل في المدارس الخاصة التي فتحت أبوابها فلم تجد من يقبل مؤهلها التعليمي كخريجة ثانوية عامة؛ لجأت إلى خبرتها في التمريض ووجدت أخيراً عملاً في إحدى المستشفيات كممرضة مناوبة وشعرت بنفسها محظوظة لهذا كثيراً.

تحاول أن تبقى قريبة من زوجها بعد أن عرفت أنه في السجن المركزي في صنعاء حتى تستطيع متابعة أمر الإفراج عنه.

في كل زياراتها المتباعدة كانت تجتهد في حمل بعض الأكل والمستلزمات التي يحتاجها رغم أن إدخالها إليه في صعوبة إخراجه هو من المعتقل.

طالت فترة اعتقاله و لم يكفِ دخل عملها لمتطلبات الحياة وبدأت تبيع كل ما يملكان من أثاث البيت. لم تعد في زياراتها اللاحقة تحمل له سوى القليل من الأكل؛ أصبحت تعاني وضعاً مادياً صعباً يزداد كل يوم بؤساً وترديا بلا سند أو معونة من قريب أو بعيد.

طرقت كل الأبواب التي قد تمنحها أملاً بخروجه أو مساعدتها على البقاء قوية..

كل الأبواب تغلق إما عجزاً أو ازدحاماً بمن هم مثلها يبحثون عن مساندة..

لم يعد هناك سوى باب الله لن يغلق في وجه دعاء المقهورين.

في آخر زيارة قامت بها زينب لزوجها أخبرها أنهم ربما ينقلونه من السجن المركزي إلى سجن آخر..

يحاول أن يوقد الأمل المنطفئ في عينيها حين تراه بحالٍ مزرٍ فيهمس:

- ليس بعد هذه الشدة إلا الفرج.. ثقي برحمة الله.

وعادت إلى رحلة البحث عن مكان اعتقاله؛ علمت أنه تم نقله إلى سجن المدرسة العسكرية؛ فانقبض قلبها هلعاً كون هذا المكان يعد منطقة عسكرية ضمن أهداف طيران التحالف.

كان العمل في المستشفى مرهقاً بدوام طوال اليوم لكنه أصبح مرعباً عقب أحداث الثاني من ديسمبر؛ حيث ازدحم المشفى بالجرحى والقتلى من جنود الحرس.

زاد أوجاعها أنهم في معتقل المدرسة العسكرية يمنعون الزيارة عن أهالي المعتقلين؛ تبخر صمودها الذي كانت تستمده من رؤية زوجها صامداً.

و لم تكن لتثق أن يأتي اليوم الذي يعود فيه إليها معافى.

وفي أوج الأحداث الدامية التي تلت الثاني من ديسمبر التي نشبت في صنعاء كانت موزعة بين القلق على أطفالها والخوف على زوجها وإرهاق عملها.

كانت تتجرع مرارة الصبر عسى أن يأتي اليوم الذي يعود فيه زوجها وتنتهي كل متاعبها بين يديه.

لم تكن لتتخيل في أبشع كوابيسها أن تستدعيها سلطات المليشيا كي تعيد زوجها إلى البيت.. إنما جثة هامدة بعد أن قصف التحالف معتقل سجن مدرسة الشرطة العسكرية والذي قتل فيه أكثر من أربعين معتقلاً.

***

عادت إلى ذمار إنما جثة بلا روح ككل الجثث التي تعـــود إلى هناك من جبهات القتال؛ عادت إلى "ذمار" مدينة المقابر التي تمتد حتى ابتلاع كل الأحياء..

عادت لتبكي حزنها مع مئات الأمهات والزوجات الباكيـــات الثكالى، الباحثات عن انتقام من عدو اخترعه السيد ليداري جريمته في إبادة أبناء ذمار في حروبه المقدسة ضد الحياة التي لا تقبل ولاية الموت والجهل والخراب.

ما أكثر الراحلين من هذه المدينة إلى جبهات سيد الكهف كي يعودوا جثثاً هامدة ثم لا ينتهون؛ في يوم واحد دُفن عشرون قتيلاً أتوا بجثثهم من المعارك الدائرة في "بيحان"؛ في يوم واحد دُفن أربعة مـــن أسرة واحدة أخوة وأبناء عمومة.

قد لا يحظى كل مقاتلي جماعة الحوثي بقبر أو يهـــتم رفـــاقهم بانتشال جثثهم في مناطق الاشتباك؛ كثيراً ما يُتـــرك أبنـــاء القبائـــل للكلاب تنهش جثثهم في الجبال حين يعجزون عن انتشالهم.

في حين تقام الجنائز الفخمة لأبناء الهاشميين؛ حتى في الموت والدفن تحت التراب خلقت هذه الجماعة عنصرية بغيضة ستحرق شـــجرتهم المقدسة قبل أن ينتهي آخر اليمنيين البسطاء في أتون معاركها.

صارت ذمار مقبرة كبيرة؛ لا يخلو أي بيت فيها من مأتم.

كم يتمنى قلب زينب المفجوع أن يتشفى أو أن تطلق الزغاريد كلما أقبلت جثثاً جديدة لمليشيا الجماعة؛ تريد أن تتشفى لمصـــارعهم

لكنها ترى وجوه الأمهات الثكالى فيهدها التعاطف والحزن.

كيف ستربي ولديها في هذه المدينة القائمة على فوهة الموت؟!!

وأين يمكنها أن تفر بهم كي لا يكبروا على مشاهد الدفن وتأليب الصغار للقتال؟

إنها من أسرة ولاؤها للسيد ومعارك السيد وولاية السيد؛ أخوها يمسح على رأس طفلها اليتيم مطالباً إياه أن يكبر كي يذهب لقتال آل سعود!!

تصيح به قائلة:

- بل يقاتل من اعتقلوا أبوه وكبلوه بالحبال كي يموت بقصف طائرات آل سعود.

ينظر أخوها إليها شزراً وهو يقول:

- منذ متى يسمع الرجال كلام النساء؟!! ويضع عينيه في عيني صبي في العاشرة قائلاً:
- "لا ترد ظهرك لمرأة ولا تكنن تحت شجرة" لا تسمح لأمك التي غسل أبوك الداعشي دماغها أن تجعلك أضحوكة بين الرجال؛ إذا لم تأخذ بثأر أبيك من آل سعود بقتالهم فأنت امرأة ابن امرأة فعلاً".

هكذا تستمر معاناة حياتها داخل أسرتها؛ وما تزرعه مساء من فهم في عقلي ولديها يقتلعه أخوتها صباحاً حتى المساء.

أين تذهب وهي "المكلف" العاجزة عن مجابهة الحياة بلا محرم وعائل؛ أين تذهب بطفلين يحتاجان إلى غذاء وكساء وإلى معيشة طبيعية بعيداً عن التشرد والتسول؟!

لقد ماتت همتها في مجابهة الحياة حين قُتل زوجها؛ كانت تستمد قوتها من صموده في زنازين الاعتقال والتعذيب؛ الآن هي عاجزة حتى عن الصياح في وجه أخوتها أن يتركوها كي تربي أطفالها بطريقة تحفظ إنسانيتهم.

فكرت أن تهرب بهم.. لكن إلى أين؟!! إلى الضياع.

لقد لامست في حياتها قصصاً مخفية عن الرصد أثارت رعبها عن نساء اضطرتهن الحياة إلى بيع أجسادهن مقابل الغذاء؛ ممارسة الدعارة بدعوى الفقر والحاجة.

زميلتها في مهنة التمريض "سالية" قصت عليها حكايات نساء لجأن إليها للحصول على موانع حمل خشية الافتضاح؛ لم تنسَ قصة تلك المرأة التي أتت إلى "سالية" راغبة بالإجهاض بعد تورطها بحمل غير شرعي؛ تذكر ذلك اليوم المروع حين اقتحمت عليها "سالية" حجرة التمريض الفارغة وهي ترتجف وترتمي أرضاً كصخرة ثقيلة وهي تهذي لنفسها:

- ماتت المرأة.. لم يحتمل جسدها الضعيف كل ذلك النزيف؛ الأمر ليس بيدي.

اقتربت منها زينب وجلست أرضاً قربها وهي تتأمل ملامحها الذاهلة هاتفة بقلق:

- من هي يا سالية؟

رفعت سالية نظراتها المصدومة وكأنما أدركت لتوها أنها ليست في الحجرة لوحدها فقالت بصدمة أكبر:

- امرأة لا أعرفها؛ أتت إليّ وهي تنزف.. كانت قد أجهضت.

- هل تعرفينها؟ كثيراً ما تموت النساء في حجرات الولادة فما بك؟ لماذا تبدين ملتاعة هكذا؟ ليست مشكلتك.. إنه قدرها وسيتفهم زوجها ذلك.

ردت سالية بهدوء وقد استجمعت رباطة جأشها:

- ليس لها زوج.

شهقت زينب برعب هذه المرة وهي تقول بخوف:

- أليس معها أحد؟ كيف أتت ومن قام بإجهاضها؟ أنت يا سالية؟

أومأت سالية باستسلام:

- أنا أحاول مساعدتهن فقط؛ شفقة بهن أن يجتمع فقر وفضيحة؛ لقد أتت معها رفيقتها في ما يقمن به؛ سيتدبرن الأمر.. المهم أن نتعاون في إخراج جثتها دون أن يعلم أحد.

صرخت زينب بهلع:

- نتعاون!! من تقصدين بنتعاون؟!! لا علاقة لي بهذا الأمر أبداً.

انتصبت "سالية" كوتد وهي تقبض على ساعد زينب النحيل هامسة بصوت خفيض:

- لا علاقة لك فعلاً؛ لكنك عرفت بالمصادفة فلا تفشي سري هنا.

بعد تلك الحادثة أصبحت "سالية" ترى في زينب كرسي اعترافاتها ففي كل مناوبة ليلية تحكي لها مزيداً من القصص الخفية في مجتمع ينزلق إلى قبح الفقر والحاجة.

ربما كان تركها لعملها في المستشفى بعد مقتل زوجها نقطة بيضاء في أيامها الحالكة؛ كم كرهت كل تلك القصص السوداء المؤلمة التي تناقض قصص البطولات الشامخة خلف أسوار المعتقلات؛ كم كرهت أن يحدث هذا لنساء كان يمكن أن يعشن عفيفات فاخترن طريق الرذيلة وكان الموت جوعاً أشرف الطرق كلها.

لقد كان الاعتقال الحقيقي لمن هم خارج أسوار السجون؛ فالسجن الحقيقي هو سجن الروح بفكرة سيئة تقضي على إنسانية البشر.

لقد فضلت أن تبقى بين أخوتها على وحشيتهم عوضاً أن تقذف بها الحياة إلى وحوش ينتهكون شرفها قبل حريتها.

***

في أحد صباحات أواخر يناير ومن مدرسة قريبة كان صوت مندوبة الحوثيين يأتي رخيماً ومؤثراً وهي تقول للتلاميذ المتسمرين برداً وإنصاتاً:

- ستكون كلمة اليوم عن العدوان السعودي الظالم ضد وطننا الآمن.

واندفعت بفصاحة تحكي ماذا صنع العدوان من دمار لهذا البلد الذي كان يعيش في رخاء وسلام قبل إقدام الجارات على الفتك بسلامه وأمنه؛ وتشيد بثناء باذخ بتضحيات الجيش واللجان الشعبية بقيادة السيد للدفاع المستميت عن الوطن.

وضعت زينب كوب القهوة من يدها لا تدري أين استقر؛ كانت تتخيل نفسها معلمة في مدرسة تزورها مندوبة كهذه تقلب حقائق الواقع في عقول الصغار بمجرفة الكذب والتباكي الزائف.

أيقنت أنها لا تلوم كل تلك الرؤوس الكبيرة التي زارها "الصماد" ليمرغ جمهوريتها في وحل الإمامة؛ إنه ذل الضعف أمام جبروت الهمجية والسلاح.

هو انكسار السنابل المثمرة أمام آلة حصد وهرس صماء لا تعقل أو تفهم.

لا يؤلم المشاهد للوضع تلك الرؤوس التي امتلأت بفهم الواقع ومتغيراته وعرفت الحقائق والتدليس عليها فصمتت مؤمنة بقوة الخوف أو معتنقة أضعف الإيمان وهو احتجاج القلب.

ما يؤلم حقاً هي تلك الرؤوس الصغيرة البريئة التي تقف في البرد تلملم على أجسادها ثياباً لا تقي برداً وتفتح عقولاً لا تملك وعياً وفهماً بما يُلقى إليها من حقائق كاذبة هي أشد وطأة من برد الشتاء في صباحات غابت عنها الشمس.

هل سيزيف الحوثيون التاريخ؟!!

بالطبع فالتاريخ يكتبه الأشد وقاحة والأكثر مقدرة على الكذب.

وكل هؤلاء الصغار سيكبرون ويتحدثون عن العدوان السعودي وحلفائه على اليمن الآمن..

لن يعرفوا مع كمية التعبئة الخاطئة الكاذبة التي يتربون عليها أن هذا العدوان أتى في عملية إنقاذ عاصفة لما تبقى من اليمن بعد أن اجتاحتها مليشيا الحوثيين كطوفان يأكل الأخضر واليابس؛ الجمادات والأحياء.

وما نتج عن هذا الإنقاذ العابث من دمار واحتلال لأجزاء من هذا الوطن هو نتيجة لما قام به الحوثيون من خطف وتدمير للدولة ومقدراتها.

نحن بكل بساطة أمام قصة مضحكة مبكية تقول إن لصوص الوطن هم حماة الوطن؛ في حين انقلب حماة الوطن إلى مرتزقة وعملاء.

هكذا يكتب التاريخ في عقول الصغار في مدارس يؤججها الجوع والجهل وتحتاج إلى مشجب تتجه إليه أصابع الاتهام بقسوة هذا الحال.

أطفال يقاسون ضراوة العيش؛ مشاهد شقائهم ارتبطت بطيران العدوان؛ جوعهم ومرضهم وإغلاق مدارسهم وبؤس معلميهم.. كل

شيء يشير إلى العدوان؛ هكذا يطبعه الحوثيون في الأذهان.

إنه العدوان على التاريخ؛ العدوان على الحقيقة.. العدوان على وعي أبنائنا..

أي عدوان أكثر من هذا يمكنه أن يحدث علينا وعلى عقول أبنائنا.

***

(10)

وإن تجزأت روحي قطعـًا صغيرة؛

يظل حبك جامعـًا لأجزاء روحي..

لم تكن مصادفة أن تقررت عودة "وحيد" و"شائف" إلى مأرب اليمن في أول أيام عام 2018. شائف العقلاني بمثالية كبيرة لا يخلو من مسحة عاطفية خيالية في تفكيره قال باسماً وهما يستقران في حافلة النقل الجماعي لرحلة العودة:

- اليوم هو الأول من أول شهر لهذا العام تاريخ ميلاد جديد لك يا وحيد؛ أنت الآن وحيد جديد لعمر جديد أليست هذه عبارتك القديمة؟ كل عام وأنت روح الوطن الناطق بالحق كما عهدتك يا صديقي.

التفت وحيد إليه وأحاط كتفه بذراعه وهو يقول بتأثر:

- الفضل لك يا شائف؛ هذه البداية على يديك أنت أيها الطيب.

ربّت شائف على فخذ وحيد برفق وهو يقول:

- ما كنت لأفعل أكثر مما كنت لتفعله أنت يا وحيد؛ نحن أخوة فكيف يتخلى أحدنا عن الآخر في الملمات.

غامت عينا وحيد وابتسامته تتسع لخيالات الأمل..

"ها قد عاد الحلم كبرعم نبت على شجرة اجتاحتها عاصفة؛ عاد حلم الوطن الذي تتمناه وتسعى إليه كل عمرك يا وحيد؛ أنت في الطريق من جديد إلى مأرب؛ وهذه المرة أنت تسند جسدك إلى رفيق الكفاح صاحب القلب النقي شائف؛ ستكونان معاً تشقان طريقاً لهذا الحلم بلا حوادث طريق موجعة".

تنهد وحيد بسعادة وهو يتخيل وجوه أطفاله الذين ينتظرونه هناك في مملكة سبأ "مأرب" التي اكتظت بعشاق الحرية والجمهورية..

مأرب التي تقاطر إليها كل المقهورين كجزيرة ناجية من غرق؛ حتى أولئك الذين شيطنوها من حزب "صالح"؛ قدم الكثير إليها فراراً من بطش مليشيا الحوثيين بعد مقتل زعيمهم والتنكيل بهم بعد أحداث الثاني من ديسمبر..

مأرب التي ظلت في عيون البعض صحراء وأهلها بدواً يقطعون خطوط الكهرباء والغاز ويخطفون السياح صارت جزيرة النجاة لهذا الوطن.

تزدهر بالعمران وبناء المرافق التي تزداد كل يوم؛ جاء اليوم الذي تشرب فيه مأرب الكابتشينو.. وتعيد حضارة الأجداد. الآن هي الأمل ونواة البناء للمستقبل..

مأرب التي اكتظت فجأة بحوالى مليوني نازح استوطنوها على شحٍّ من الإمكانات جعلها كعنقاء استيقظت وفردت جناحاها بين رمال الصحراء.

يزداد البناء كل يوم؛ وتتفرع الشوارع كشرايين في جسدها الفتي القوي؛ تكبر في قلوب اليمنيين كما يكبر حلم الدولة الحرة.

***

لأيام قلائل تذوق وحيد معنى العودة إلى حضن وطن آمن؛ فيه أهله وأولاده وأحباؤه ورفاق كثر تقاطروا إلى منزله للسلام عليه وزيارته وتهنئته بعودته معافى إلى حيث اختار وتمنى.

كلما أقبل عليه صديق قديم امتلأت روحه بالسعادة لكونه هنا بخير..

لقد أصابه اليأس زمناً لكثرة ما رحل من الرفاق بين شريد وقتيل ومعتقل.

لكثرة الفقد من حوله صار يحصي تلك الأشياء؛ الأشخاص؛ الأماكن التي يخشى فقدها وليس تلك الأشياء التي فقدها.

نحن كبشر نشعر بالرضا والسعادة لما تبقى فكل شيء نفقده بفعل القدر لا نملك حياله إلا الرضا سلاحاً نشهره في وجه اليأس والقنوط.

في أحد صباحات الرضا تلك طرق الشيخ "قاسم" منزل وحيد.

كان الشيخ قاسم قد أتى مأرب قبل شهر فقط من عودة "وحيد" وسأل عن الصحفي "وحيد الأمير" وعلم بالحادث الذي وقع له وهو في طريقه إلى مأرب..

لقد كان يصادف توقيت مقتل صديقه "أحمد النويرة".

ما أن استقر به المكان في حجرة الضيوف المتواضعة حتى ابتدر "وحيد" قائلاً بثبات وكأنه يزيح جبلاً عن صدره:

- أتيتك أحمل أمانة ووصية من صديق لك.. "أحمد النـــويرة" كنا في معتقل واحد.

هوت الكلمات على قلب "وحيد" كتيار صـــقيع وانقبضـــت أنفاسه خوفاً وترقباً؛ لم يجرؤ حتى على السؤال: كيف أحمد؟

استطرد الشيخ قاسم كلامه بحزن يفيض من كلماته:

- للأسف يا أستاذ وحيد لقد استُشهد أحمـــد؛ قُتـــل تحـــت التعذيب قبل شهور؛ تقريباً في توقيت الحادث الذي حصل لك يا بني.. عذبوه أكثر مما يحتمل بشر؛ وأخذوا جثتـــه لا نعلم إلى أين؟ لقد أفرجوا عني ذلك اليوم الذي صلينا عليـــه غياباً بعد أن نزعوا جثته من بين أيدينا؛ قبل أن يموت بـــين يدي حملني أمانة لك وهي أن تكفل طفليه "رهف" و"رعد" هما في ريف تعز كما أخبرنا.

صمت الشيخ قاسم إشفاقاً على "وحيد" وقد أســـند فمـــه إلى قبضته المتكورة يكتم شهقات يزفرها بأسى بالغ؛ تبخـــرت ســـعادة وحيد الوهمية كلا شيء..

خضبت دموعه لحيته الخفيفة وسالت على قبضته المضمومة بقوة بين شفتيه المرتعشتين..

لقد سأل كثيراً عن مصير "أحمد النويرة" وقيل له إنه موجود في سجن "هبرة" صاحب الصيت السيء؛ وأن هناك وساطات لتبـــادل أسرى للمليشيا لدى الجيش الوطني بمعتقلين مـــدنيين يكـــون هـــو ضمنهم.

كان يتمنى أن يأتي اليوم الذي يحرر فيه أحمد من اعتقاله ويلحق بأسرته إلى هنا..

- يا الله.. كنت تزورني كثيراً في غيابـــي عن الوعي يا أحمد تقطر ياقوتاً أحمر وتخبرني أنك ستسبقني. لقـــد خـــذلتك يا صديقي.. تركتك وفررت؛ وبقيـــت كـــي تـــواجههم وحدك.

انتزعوك من أسرتك وطفليك؛ بل منا جميعاً فأي يتم هو يـــتم قلبـــي؟!!

أولادك هم أولادي يا صديقي.. نم قرير العـــين يـــا أحمـــد؛ سأفضلهم على أولادي ما بقيت حياً وبعد مماتي.

***

في مأرب بدأت الصحافة الورقية تعود على استحياء بعد أن عملت المليشيا على قمعها وإنهائها في العاصمة صنعاء فيما عدا صحفها التي تعبر عن فكرها الكهنوتي.

كانت الصحف قادمة من "عدن" العاصمة المؤقتة للوطن بجوار صحيفة السادس والعشرين من سبتمبر الصادرة عن الجيش.

وبإيحاء من شائف وعلاقاته الكثيرة، وناجي وإخلاصه المتفاني من أجل قضية الصحافة المستقلة، بدأت الفكرة تراود وحيد في صحيفة وطنية مستقلة تسعى لحرية الكلمة والرأي؛ صحيفة تخدم الناس البسطاء، تلك الفئة التي يستغلها الحكام والنافذون دائماً؛ الفئة التي يضيع صوتها بين أصوات القوة والنفوذ.

طرح الفكرة على شائف قائلاً:

- إما أن تشجعني أو تصرف الفكرة عني فثقة الناس في الصحافة والأخبار صارت كثقة الشعب بكل سلطة؛ الكذب فيها أكثر من الصدق.

ابتسم شائف قائلاً:

- يجب أن تثق أنت أولاً فيما ستقوله وتكتبه للناس؛ فهم لا يريدون تفاؤلاً كاذباً أو قراءة مسكنات عقلية؛ ولا يريدون تحطيماً، فهم محطمون فعلاً؛ حتى الوعي يا صديقي لا يُباع أو يُلقن؛ برأيي كل من يريد أن يفهم سيفهم؛ وكل من يريد أن يعي فسيسعى إلى وعي صحيح. لقد أصبح الوعي

مشاعاً إلا أن العقول تغلق دونه.

واستدرك ضاحكاً: ومع ذلك ففكرة صحيفة ورقية أمر مطلوب بعد أن انقرضت الصحف.

سنقوم بالبحث عن مقر لهذه الصحيفة فقلة المباني هنا مخيفة؛ وإيجاراتها لهذا السبب مرتفعة؛ لكننا سنوفره وسيكون ذا فائدة؛ سيكون مشرعاً للوافدين من الإعلاميين الذين يصلون هنا دون مأوى.

- كنت أعرف أنك لن تبخل عليّ بالتشجيع يا صديقي؛ ستكون الصحيفة الورقية إضافة جيدة تذكرنا بالزمن الأقل قبحاً.

انضم وحيد إلى منتدى مأرب الإعلامي وزاول نشاطه كصحفي، وكاتب من جديد، يعلم يقيناً أن الكلمات التي تُكتب في لحظة صدق هي من تصنع المواقف؛ فرب كلمة قيلت نزعت ألف ستر؛ وشقت ألف سبيل.

الكلمة سلاح لا يقل ضراوة عن الرصاص والكاتيوشا؛ ويجب أن توجه إلى الفساد والباطل حيث كانا؛ الكلمات ميزان آخر للعدل يقيم بها إن انحرف عن الطريق.

في أحد صباحات مأرب المحملة بالغبار كان "وحيد" و"حافظ" في طريقهما للقاء "شائف" في فعالية احتجاجية تندد باستمرار اعتقال الصحفيين للسنة الثالثة على التوالي من قبل المليشيا، في المناطق الخاضعة لها، وكانت قد دعت إليها منظمة الإعلاميين اليمنيين "صدى".

لم يكن وحيد يؤمن بجدوى مثل هذه الفعاليات الاحتجاجية التي لا تتجاوز صدور فاعليها وهتافاتهم اليائسة؛ لكن الألم المكبوت في

صدره من أحداث عدن الأخيرة؛ ذلك الشعور المرّ بضياع الوطن مرة تلو مرة جعله يهرب من ضيقه بأي نشاط لا يتركه فريسة للأخبار المتلاحقة.

حتى اتصالاته للاطمئنان على عفراء اكتفى منها بالألم في صوتها والذي جعله ينصرف عن الحديث معها مكتفياً بأنها بعيدة عن الاشتباكات التي حدثت بين معسكر الحماية الرئاسية وقوات الحزام الأمني في عمل أقرب إلى محاولة انقلاب أخرى.

يؤلمه شكواها من رعونة أخيها خلال الأحداث وحماسته لدولة الجنوب العربي التي يجب أن تنعم بالاستقلال على حد زعمه؛ تشكو من مناكداته لها رغم كونها في سكن منفصل هي ووالدتها المريضة، إلا أنه يصر على التنكيد عليها وقت زياراته لمعرفته بتمسكها بالوحدة قلباً ووطناً.

حينها ضحك وحيد قائلاً:

- هل يعني هذا أن أخوك الجنوبي لن يقبل لأخته الجميلة "دحباشي"؟

بادلته عفراء الضحك قائلة بعناد:

- يكفي مرة واحدة لم يكن لي فيها خيار في حياتي؛ أظنني كبرت على هذا الضعف.
- كذلك كبرت عدن يا عفراء وازدادت أهمية لمن حولها فطمع بها القريب قبل البعيد.
- تلك عدن يا وحيد.. والنساء تشبه المدن لكنهن لسن مدناً.

في حصاد آخر أيام شهر يناير لعام 2018 تعز مشتعلة لليوم السادس في انتفاضة جديدة أطلقها المحافظ الجديد من أجل التحرير

لكنها كالعادة غير متكافئة؛ شباب يقاتلون حفاة عراة من السلاح في مواجهة دبابات وأسلحة ثقيلة.

مواجهات حامية يتساقط فيها الشباب كالزهور في معصرة الحرب ليفوح عطر الورد على شواهد قبورهم دون أن تحاول قوات التحالف مساندتهم بالسلاح أو العتاد.

وفي عدن يقوم طيران التحالف بقصف معسكر قائد اللواء الرابع "مهران القباطي" فيما يحرق المتمردون على الشرعية منزله؛ الرجل الذي انحاز إلى الوطن ونادى بدولة المؤسسات رافضاً سلطة مليشيا الحزام الأمني، ومنتقداً أطرافاً في التحالف بالتآمر على الشرعية.

المجلس الانتقالي الذي يطالب بانفصال الجنوب عن الشمال يرفض وجود الدولة في عدن ممثلة برئيس الوزراء "بن دغر" وفي ذات الوقت يدّعون وقوفهم مع قوات التحالف التي لم يعد اليمنيون يثقون هل أتت لدعم الشرعية أم لدحرها؟!!

جيش آخر يعدّ لقتال الحوثيين في معسكر العند بقيادة "طارق عفاش" ومع ذلك يشارك في ضرب الشرعية في عدن.

الوضع في اليمن كالعادة إما ضحك على العقول وإما امتهان للذقون..

ورجل الشارع البسيط صار يعرف ما يُحاك خلف كواليس التصريحات السياسية ويميز عدوه بسهولة.

قال حافظ بحسرة وهما يغادران مكان الفعالية:

- لا تظن أن حلم الدولة المدنية الحرة هنا في مأرب نقياً من الشوائب يا أستاذ وحيد؛ الشرعية مثقلة بزوائد فساد حملتها على ظهرها حين اجتمع تحت رايتها الكثير من

الفاسدين؛ إنهم يعكرون حتى الهواء بأنفاس مصالحهم التي تخنق الفقراء وجرحى الحرب؛ يأكلون من لحوم الجرحى المتعفنة التي لم تجد لها علاجاً أو اهتماماً؛ يشربون من دموع الأمهات اللاتي يهبن أبناءهن للقتال من أجل الوطن فيتقاسمون خيراته مناصب وتعيينات ومستحقات يتوارثها الأبناء عن الآباء؛ ما زلنا تحت بند التوريث الذي خرجنا ضده في 11 فبراير.

ما زلنا أداة فقط وأولئك الذين صدّعوا رؤوسنا إبان حكم المخلوع وأباحوا الدولة للمليشيا لحقوا بالشرعية ليسودوا بعد أن لفظتهم المليشيا وطاردتهم كخونة.

ما زالت الحظوة لهؤلاء الأوغاد ليكونوا في سنام الأمر الذي يقوم على أكتاف الشرفاء.

هل ترى تبجح ذلك الحقير "صفوان الكامل" أثناء الوقفة الاحتجاجية؟! ليس سوى شخص ناقص حارب شرعية الدولة وأباح دماء المعتقلين بدعوى مساندة التحالف. لقد استمات في خدمة زعيمه ومن تحالف معهم ضد هؤلاء الناس الذين استقبلوه هارباً إليهم الآن.

ابتسم وحيد وهو يتذكر عدوه اللدود الصحفي صفوان الكامل كم كان يكره ابتسامته اللزجة التي لا تفارق فمه؛ ابتسامة لئيمة تخفي الكثير رغم انفراج شفتيه المرتخيتين:

- هذا الحال متوقع يا حافظ. نحن لا نخلق هنا مدينة أفلاطونية وأيضاً لن نقبل بمستنقع فساد آخر؛ علينا ألا نصمت فقط؛ فقد صمتنا ثلاثة وثلاثين عاماً حتى صار الفساد المالي

والإداري نظاماً وقانوناً، ويجب ألا يفسد مستقبلنا كما دمر ماضينا وحاضرنا.

لقد كنا نعيش سوء الحال؛ نربي أحلامنا كأطفالنا بحنان فائض وخوف حريص؛ نربي الأحلام والأمنيات فتطير من صدورنا وتقع في أيديهم حقيقة يجنون ثمارها ونحن نعقّل طيشنا كي لا نثور؛ لا قيمة لأبناء البسطاء كأنهم عصي هشة تحطمها أقدام أصحاب النفوذ والمال؛ الثورة فقط جمعت العصي الهشة لتكون عصاً غليظة تربي سارقي أحلام البسطاء.

والنقد والتقويم هما أداة الحفاظ على أي إنجاز للحرية.

في مقابل قيامة مأرب ها نحن نرى اختلاس جزر سقطرى التي هي قطعة أخرى من روح الوطن نهشها الإهمال والفساد زمناً طويلاً في عهد "صالح"؛ فارتمت كارهة أو راضية في أيدٍ غير أمينة على كنوزها ومكنونها؛ أيد جاءت كي تنقذ فسرقت ما في جيوب الضحية واحتلت جسدها عنوة.

وها هي عدن يتصدع فيها الأمان بانقلاب موازٍ لانقلاب صنعاء؛ ما تشهده هذه الأيام من معارك بين الحرس الرئاسي وجيش المجلس الانتقالي المتمرد لا يخرج عن كونه انقلاباً على الشرعية ممن يدعي دعمها ليقصف معسكراتها بطائراته.

***

في مأرب عادت ملامح الحياة القديمة مع وجوه الرفاق وطموحاتهم؛ التقى "وحيد" "بسماح" في تلك المدينة التي ضمت رفات "عمار" حلمها الراحل؛ هتفت ببشاشةٍ ما أن رأته:

- مرحباً بك في مأرب بيتك الكبير يا وحيد.. وحمداً لله على سلامتك.

سماح لم تزدد سوى غطاء للرأس حجب شعرها الكثيف ونظارة صغيرة يحملها أنفها الدقيق؛ ابتسامتها الحزينة آخر ما شاهدها فيها. ما زالت كما هي كأنما التصقت بشفتيها منذ استشهاد "عمار"..

يبدو كأن زمناً طويلاً يفصل وحيد عن صديقه الفنان الذي رحل وأخذ معه الكثير من هذه المرأة التي تقف أمامه أشد نحولاً وصرامة.

لقد قابل في مأرب كل الرفاق الذين سبقوه منذ اجتياح صنعاء؛ حتى أولئك الذين استشهدوا، أرواحهم هنا وصورهم التي تنحني لها القلوب تقديراً؛ هتف بفرح:

- مرحباً بالعزيزة سماح.. وشكراً لمأرب التي جعلتك تتفتحين كزهرة يفوح عبقها بذلاً وعطاء في مناهضة قضية مهمة كتجنيد الأطفال وصغار السن.

ابتسمت بحزن وهي تقول ضاحكة:

- سعيدة برؤيتك مجدداً يا وحيد؛ ليتك لم تفسد فرحتي برؤيتك بالحديث هذا.

وعاد الأسى ليرتسم على ملامحها وكأن مشاهد موجعة غـــزت ذاكرتها وهي تقول:

- ليست قضية يا وحيد؛ إنها مأساة وطن مخيفـــة.. شـــيء لا يصدق أن يحدث هذا في زمن يُنادى بحق الحيوان ولا يعرف حقاً للطفولة؛ لن تتخيل يا صديقي حجم الكارثة؛ ولكـــي تتخيل هول الجريمة لك أن تعرف أن خمسين طالبـــاً مـــن مدرسة واحدة هي "العلم والإيمان" في منطقة "بني حشيش" صنعاء فقط قتلوا في المعارك بعد أن تم تجنيدهم والزج بهم في أتون حرب لا تشبه ألعابهم الطفولية أبداً..

لدي طفل هنا يسمى "حاتم" أصيب بصدمة عصـــبية بعـــد أن اختطفه عاقل الحارة وأهداه لمشرف حوثي؛ ما زلت عـــاجزة عـــن تسليمه لأهله بسبب حالته؛ هكذا يجمعون الأطفال من مدارســـهم ومن الشوارع حيث يلعبون..

يقومون بإغراء أهاليهم بمبلغ تافه أو بسلة غذائية؛ أو حتى ألقاب تسخر منها العقول ومن قائليها.

في وطننا تتنافس الأوجاع أيها تعتصر قلوبنا بقوة أشد؛ تصـــبح أوجاعنا ملفات في نظر المنظمات الحقوقية وهي دموع وأشلاء جثث في قلوب أصحابها.

هناك ملفات خرساء رغم كثرة الصارخين لها؛ تظـــل خرســـاء لأنها تكوي فئة محددة لا يشعر بها الجميع مثلما يفعل الفقر والمـــرض وغلاء المعيشة بالملايين.

الجرحى والمعتقلون وحق الطفولة الضائع؛ هذه الأوجاع الثلاثة تصهر قلوبنا حزناً.

كلما قرأت عن حقوق الطفل وقفزت إلى نظري عبارة: من حقي أن ألعب.

أضحك بحزن.. بيأس وألم.

كيف لنا أن نقنع الطغاة أن من حق هذا الطفل أن يعيش فقط.

الأطفال لم يعودوا يكبرون كي يكونوا هم المستقبل؛ إنهم يُقتلون ويصبحون ماضياً مخيفاً وحزيناً على يد المليشيا المتجبرة؛ يُقتلون قرباناً لطاغوت يدعي حق امتلاك أرواحهم وفق سيادته وولايته الواجبة عليهم.

كنا نتباكى على الأطفال في عهد "صالح" حين يتسربون من مدارسهم لطلب الرزق كما تتسرب الدماء من جسدٍ جريح؛ وكنا نخاف أن يلفظ جسد الوطن حياة العلم والوعي بتسربهم في سن مبكرة نحو الجهل من أجل الرزق.

الآن صاروا هم جرح المستقبل النازف نحو العدم..

مئات الأطفال يُختطفون إلى معتقل الموت في الجبهات مقيدين بسلاح يفوق أحجامهم وقدرتهم على حمله حتى تأتي رصاصة الخلاص من اعتقال الجهاد المقدس.

لم يسلم حتى الأيتام الذين فقدوا الأب والعائل فمنحهم السيد رحمة الموت السهل بدلاً من التعليم أو لقمة العيش!! فهكذا تربت الرصاصة على رأس اليتيم!!

في زمن مليشيا الحوثي الانقلابية الحرب لا تصنع أطفالاً أيتاماً؛ إنها تحمل حتى الأيتام إلى الموت في الحرب.

يُساقون إلى الموت انتحاراً فلا يكلف الطاغية نفسه حتى تدريبهم من أجل القتال بل إعدادهم من أجل القتل؛ يصل أغلبهم إلى المعركة

قتيل الخوف والرعب؛ مضرجة ذواكرهم بمشاهد المـــوت؛ مخضـــبة أكفهم بدماء القتلى من رفاقهم..

المحظوظ من وقع في الأسر بعد وقوعه أسيراً لاضطراب نفســـي وعقلي وصدمة من هول ما يلاقيه في القتال، فالحرب ليســـت لعبـــة أطفال.

نحن نحاول هنا في مأرب تأهيل هؤلاء الأطفال نفسياً وعقلياً كي يكونوا أطفالاً بعد أن حولتهم المليشيا إلى وحوش ضـــعيفة افترســـها الخوف والحرب.

***

(11)

يا شاطئ الأمنيات..

كل غريق بعرض البحر

وغرقي أنا علىٰ الشاطي..

وحيد في الطريق إلى عدن بعد أن عاد الهدوء إليها كرماد يحجب جمراً مشتعلاً بالفتنة؛ ذاهب إلى حيث الدفء مرتين؛ شمس هذه المدينة وعفراء..

من أجل رحلة الحلم هذه تنصل من مرافقة شائف إلى مناطق الجبهات لزيارتها بغرض عمل إعلامي له في حين ذهب شائف بغرض التوجيه المعنوي في الجبهة.

أغمض وحيد عينيه طوال الرحلة كي لا يرى رمال الصحراء تحف جانبي السيارة.

يخشى أن تقفز إلى ذاكرته ذكرى آخر لقاء لجسده بهذه الرمال حين صنع منها حفرة تتسع له كقبر في حادث السيارة.

يريد أن تكون ذاكرته نقية من الوجع كي تتسع لجمال لقائه بعفراء بعد غياب سنوات كانا فيها أقرب ما يكون رغم أنف البعد.

حرص ألا يخبرها بقدومه إلا وساعات فقط تفصلها عنه؛ يدرك كيف يمر الوقت في الانتظار؛ إنه تقريباً لا يمر، واقفاً على القلب كالصخور.

وصلت السيارة إلى الفندق وصعد إلى غرفته وكل عرق فيه ينبض بلهفة؛ هاتف عفراء بوصوله وأخبرها أنه قادم خلال ساعة فقط؛ استبدل ثيابه على عجل وخرج مسرعاً إلى حيث أخبرها أن تنتظره..

كورنيش ساحل أبين في المساء أكثر ما علق في ذهن وحيد؛ الأمواج البيضاء تدفع نفسها بتراخ إلى الشاطئ؛ ورمال الشاطئ السوداء تستقبل الموج بصدر مفتوح وتفلتها بتكاسل..

هناك رآها جالسة على أحد المقاعد المنتشرة على طول الكورنيش أمام ذلك المقهى الوحيد الذي تذكر اسمه ليكون مكاناً للقاء.

***

ما أن هاتفها وحيد أنه في الطريق إليها حتى غادرتها السكينة وانتفضت روحها شوقاً..

أحقاً لن يبخل عليها القدر برؤيته أمامها حقيقة وليس أحلام يقظة!!

بقيت في حجرتها تفكر ماذا ترتدي وكيف تتصرف دون أن يفضحها جنونها به؟

تحادث نفسها كطفلة في العاشرة:

- كوني هادئة.. عاقلة ما استطعت أرجوك يا أنا..

أطلت والدتها من باب الحجرة مندهشة من حالة الانتعاش التي انتابت ابنتها قائلة:

- هل هناك شيء يا عفرائي؟ هل ستخرجين هذا المساء؟

رمت عفراء ما بيدها وألقت بنفسها في حضن أمها في عناق خاطف قائلة:

- نعم يا أمي لدي مقابلة مهمة ولن أتأخر كالعادة.

ارتدت البالطو المفضل لديها مع غطاء رأس باللون الأزرق الغامق؛ تحب كثيراً أن ترتبط ثيابها التي تحب بأجمل ذكرى ستحدث لها في كل العمر..

وصلت مبكرة تدفعها اللهفة إلى القدوم..

مبكرة لأول مرة في حياتها؛ فهذا هو الحدث الذي تأخر كثيراً فأتت إليه مسرعة، وتمنت لو أن كل عمرها هو هذه اللحظات فقط؛

لقد هاتفها وحيد قبل ساعة فقط أنه وصل إلى الفندق وأنه في طريقه إليها؛ لكن انتظاره ساعات لا شيء مقابل سنوات وشهور تحلم بهذا اللقاء.

جلست على مقعد أمام ذلك المقهى الذي ذكره لها بحيث يتيح لها مكانها النظر إلى كل الجهات التي قد تشرق منها شمس قلبـــها في هذا الليل؛ خلفها البحر تهمس أمواجه أغنية تتردد في جوفها هـــي، فكيف سمعها البحر صديق كل عشاق الأرض..

تعال..

عانقني..

فكل وداع يحتاج إلى عناق أخير

تعال..

ربما بالعناق تنسى فكرة الرحيل..

وكما تراه الروح دائماً في أحلامها لا شيء يشبهه؛ وحيد يقطع الممر بخطوات تحملها نظرات عفراء؛ عيناه معلقتان بها وكل شـــيء يقود إليها وإليه..

أمامها تماماً بابتسامته تلك التي ينبت لها العمر من جديد كالزهر في الربيع؛ صاحب الابتسامة التي تذيب القلوب؛ أمامها يهمس باسمها ويبسط كفاً كأنها الدنيا ليصافح قلبها المبذول على كفها..

- أخيراً يا عفراء.. اشتقتك يا أنا..

كم تمنت أن تلقي بنفسها على صدره؛ وأن تتلاشى فيه حـــتى تصبح جزءاً منه؛ هي الأشواق لا شيء يطفئها كالعناق.

طوق كفها بين يديه كعصفور ينتفض مرتعشاً رهبة؛ وطوقـــت نظراته كل ملامحها بحنان؛ ابتسامتها الدامعة معلقة بوجهه عـــاجزة أن

تقول شيئاً؛ جلسا دون أن يترك يدها؛ صامتين فكل شيء يقال دون حديث.

كل آثار السنوات بدت في عيون الحب سحراً فائضاً؛ الشعرات البيضاء التي عبثت كثيراً في رأس "وحيد" وانكسارات الحزن في ملامح عفراء؛ يا لهذا العمر كيف يمضي مهما توقفنا عن العيش.

- تعالي نتمشى قليلاً على الساحل..

نهضت متشبثة بكفه يسيران وحدهما على كوكب الأرض فلم تعد ترى أو تشعر بوجود شيء غيره..

- كشمالي يشتاق إلى البحر كما يشتاق إلى حورية البحر أفضل أن ننزل إلى الساحل بدلاً من الكورنيش فهل تمانعين من السير على الرمال قرب الموج؟

ابتسمت وهي تستدير لتصبح أمام خطواته ونظراته قائلة:

- ظننت أنك تعرف أني سأسير معك حتى إلى داخل البحر سيراً على الأقدام..

أحنت رأسها بحرج لوقع نظراته المليئة بالشغف وهي تضيف:

- ما يضير الغريق بك أي غرق آخر.

أخذ وحيد نفساً عميقاً متهدجاً وهو يشدد قبضته على كفها هامساً:

- هيا أيها البحر..

على الدرجات الحجرية القليلة كانت الإضاءة خافتة بسبب بعدها عن مصدر الضوء امتدت يد وحيد لتمسك بساعد عفراء خشية أن تتعثر؛ لكن هذه الحركة التلقائية جعلتها تتعثر ارتباكاً.

سارا على الشاطئ المتصلب من بلل البحر؛ يتحدثان بكـــلام لا يربط بعضه ببعض إلا رغبتهما في قوله والحديث لمجرد الحديث؛ وقفا أمام البحر يحدقان إلى المدى القاتم ويستمدان الأمان في اتكاء أحدهما على الآخر.

- أظن ساقي تعبت من السير يا عفراء تعالي نجلس هناك على تلك الحجارة.

تأوهت بغضب وهي تلوم نفسها:

- تباً لي من حمقاء؛ كيف نسيت أن ساقك ما زالت تتعبك؛ أوه سامحني يا وحيد.

ضحك وهو يقول:

- سأفكر في مسامحتك على إغوائي بالسير معـــك إلى آخـــر الساحل دون أن أشعر بشيء سوى أنـــك قربـــــي؛ وأني سعيد كثيراً بهذا القرب.

جلسا على إحدى الصخور المصقولة التي تناثرت في مكـــانٍ منزوٍ يقع خلفه مباشرة جدار الكورنيش؛ كانا قد ابتعـــدا كـــثيراً عن تجمع الناس حيث الإضاءة والبوفيهات والمقـــاهي وألعـــاب الأطفال.

فبدا الصمت كثيفاً إلا من موج البحر القريب..

طوق وحيد خاصرة عفراء وقربها منه؛ التصقت به وهي تتنهـــد برضا وقد أحنت رأسها على كتفه؛ تشابكت كفاهمـــا واستســـلما للصمت.

أحنى رأسه ملصقاً جبينها بصدغه؛ يفكـــر في أمثـــل طريقـــة للارتباط بها دون أن يسبب هذا الارتباط كارثة عائليـــة لـــه؛ دفء

أنفاسها يشتت تفكيره؛ يريدها قربه خشية فقدها؛ فما أكثر الأشـــياء التي فقدها مؤخراً.

تنهد بصوت مسموع فرفعت إليه بصرها وتعلقـــت نظراتهـــا بوجهه القريب منها حد الالتصاق.

انحنى بسرعة وطبع قبلة خاطفة على خدها، قبل أن يلتفت خلفه بقوة لتصطدم ذراعه بالصخرة الحادة خلفه؛ كانت أصوات صـــادرة من بعض الشباب القادمين باتجاههم وهم يضحكون بصوت عـــال قطع خلوة الليل وصمته.

حاول وحيد إخفاء جسد عفراء خلف جسده حـــين اقتربـــت مجموعة الشبان بمحاذاتهم تجنباً لأي كلمات نابية قد تصدر من الشبان كون جلستهما في العتمة قد لا تبدو بريئة.

ما أن ابتعد الشبان بمسافة كافية حتى نهض وحيد واقفاً ومد يديه إلى عفراء كي تنهض.

وقفت وأنفاسها تتهدج بانفعال، وكانت عينا وحيد المضـــيئتين تحملان نظرة لا تقوى على احتمالها..

أحاطها بذراعيه هامساً وهو يقربها منه:

- هل تتزوجينني غداً عصراً؟ لا وقت لدينا.

ارتمت في حضنه وهي تهمس بفرح:

- نعم.. نعم.. لا وقت لدينا.

ضمني إليك فذراعاك أسوار تحميني من ابتعادك؛

أي قرب هذا الذي يجعلني أهمس في أذنك أحبك.. أحبك؛

كغرزات تلمّ جراحاتي وتضم فتق السنوات في عمـــري حـــين غيابك؛

هذا القرب الذي توثقه كلمة أحبك كختم أحمر بالنجاة مـــن فراق ينوي أن يأتي.

لم يشعر وحيد بألم ذراعه إلا في طريق عودته إلى الفندق.

* * *

تمدد وحيد بكامل ثيابه على سريره في الفندق؛ ما زالت رائحة عفراء عالقة فيها؛ سيضم هذه الرائحة حتى عصر الغد حينها فقط سيستبدل ملابسه لأن عفراء ستكون معه روحاً ورائحة وضحكة يملأ صداها فراغ القلب.

أغمض عينيه برضا واكتمال لأول مرة في العمر..

قطع عليه استرساله في الخيال رنين الهاتف في جيبه فرفعه بسرعه واثقاً أنها عفراء؛ لكنه كان رقماً مختلفاً أتاه الصوت قائلاً:

- مساء الخير أستاذ وحيد أنا "حافظ".. نحتاج حضورك على وجه السرعة.
- خيراً يا حافظ ماذا هناك؟ هل الأولاد بخير؟
- نعم الأولاد وأمهم بخير.. لكن الأستاذ شائف ارتقى شهيداً.. واختنق صوته..

سقط الهاتف.. وسقط ظلام كثيف وهدير ساخن في أذني وحيد؛ شيء ما انبثق بقوة في صدره وحجب ناظريه؛ جعله لا يرى الطريق أمامه وهو يهرول نزولاً نحو صالة الاستقبال في الفندق.

سلم مفتاح الحجرة وخرج باحثاً عن أي وسيلة نقل تقله إلى مأرب.

يسير مدفوعاً برغبته في الرحيل وليس بخبرته في الطريق والأماكن التي يسافر منها الناس عادة.

استقر على مقعد سيارة تشبه تلك السيارة التي وقع فيها الحادث له قبل شهور؛

كأنهم ذات الركاب؛ يجلس برفقة السائق وشخص آخر فيما عائلة تحتل المقعد الخلفي.

وعاد إلى مصيبته التي يهرب من تصديقها.

شائف.. يا الله.. هل سمع عبارة حافظ حقيقة.. هل ارتقى صديقه شهيداً..

لقد ترك شائف يذهب إلى موقع المواجهات بمفرده؛ كان ينبغي أن يكون برفقته في زيارات التوعية المعنوية كما يسميها؛ لقد تنصل عن رفقة ذلك الرجل الطيب الملائكي.

داخله ينوح بصمت ودموعه تحرق جفونه؛ مخنوق يلتقط أنفاسه بشهقة؛ رن الهاتف..

إنها عفراء.. هذا ما لا يقدر على فعله.. لن يرد؛ ضغط زر الرفض بألم مضاعف.

ساعات طويلة تفصله عن مأرب؛ ساعات تبدو إليه دهراً ينحت الحزن والوجع قلبه وحواسه.

عاد الهاتف إلى الرنين.. كانت زوجته؛ صوتها ثابت كالعادة:

- كيف حالك يا وحيد؟ هل أخبرك أحد؟
- نعم.. أخبروني.. أين الأولاد؟
- كلنا في منزل شائف.. لا ينبغي تركهم في هذا المصاب.
- أين أصيب وكيف؟
- في موقع الاشتباكات.. قتل بقذيفة.

لم يحجب دموعه التي انهمرت بغزارة؛ ولا نشيجه الذي أفـــزع ركاب السيارة حوله..

إذا لم يبكِ على شائف كالنساء حين تبكي الرجال فعلى مـــن سيبكي؟!!!

***

غيبوبة أخرى لفّت وحيد أياماً طويلة..

لكنه يسمع ويرى كل ما حوله وينزفه على الورق دمعاً ودماً؛ فالحبر دموع الصادقين حين يكتبون الوجع.

اعتزل كل ما يحيط به وعاد إلى مغارة روحه الجوفاء بفعل الفقد..

لم تلتئم جراح القلب بعد أحمد النويرة ووالدته، فكيف يرحل شائف خلفه تاركاً كل هذا الوجع؟

عفراء عاودت الاتصال مرة أخرى.. لكنه أغلق الهاتف و لم يفتحه بعدها لأيام طويلة..

لقد كان هناك يودع جثمان رفيقه الأجمل؛ واقف على أشلاءه العاطرة يلملم أشلاء نفسه المتطايرة حزناً وصدمة!!

هل هناك أشد وجعاً من وداع الأجساد بعد أن غادرتها الأرواح الجميلة؟!!

هل هناك أقسى من أن توسد التراب بيديك وجهاً أحببته وألفته؛ تبحث عن بريق حياة في ملامحه المنطفئة وتناشده الابتسام..!!

- يا إلهي كيف يسرق الموت منا الحياة بغياب الأحبة ويتركنا أمواتاً أحياء!!
- كان ينبغي أن أكون معك يا شائف؛ لقد تخليت عنك أيضاً يا صديقي الأجمل؛ تباً لي من صديق بائس شقي.. حزين

وهذا الحزن عجز كبير؛ كيف سأمضي دونك وقد كنا معاً في كل شيء.

حين يدكّ الحزن داخلك تصبح إهاباً يمتلئ حزناً فقط؛ منذ متى كان الحزن قدمين تحملانك للفرح؛ آه يا الله لم تعد الروح تحتمل قبح هذا العالم والسماء تطهر الجميع بقسوة وشدة.

اعتزل "وحيد" حتى مقايل العزاء في شائف؛ أغلق هاتفه واحتجب عمن أصر على زيارته إلى منزله؛ ابنه الأكبر "ماهر" يستقبل أي زائر يأتي ويقوم بواجبه حتى انصرافه بحجة توعك صحة أبيه.

زوجته "سميرة" تعرف أن لاسمه نصيباً من طباعه؛ وأن كل ما يحتاج إليه كي يتجاوز حزنه أن يبقى بمفرده في مكتبته الصغيرة مع أوراقه ونفسه فقط.

***

لم ينتب عفراء الشك في تصرف وحيد للحظة واحدة..

حين أغلق الهاتف في وجهها للمرة الأولى غضبت ونامت ساخطة.

وفي اليوم الثاني حين أغلقه لكل الأيام اللاحقة تفاقم قلقها وخوفها عليه..

أدركت أن مصاباً جللاً قد ألم به..

وحيد هكذا – كانت تخبر نفسها الملتاعة الموجوعة – حين يحيط به وجع ما يختفي كطفل حزين عن العيون، ويعزف عن الكلام مع أقرب الناس إليه.

يختفي وحيد يداوي جراحه بصمت؛ يبتلع وجعه كي لا يتأذى من حوله بحزنه.

"آه يا وحيد أنت لا تعلم أن حزنك حزني وأنك فرحي الوحيد؛ الأجساد الجامدة مهما بلغ من تدانيها وامتزاجها لن تشعر بالألم؛ إنما الأرواح الشفافة يمكنها مشاطرة الألم بذات القدر والصدق.

لقد مرّ عمري وأنا أنتظرك.. وأتيت.. ورحلت كأنك حلم ليس إلا..

أنا امرأة عاشت في الحلم؛ مارست الخيال كحقيقة.. لن يكون لها واقع فيك أبداً..

أحياناً أتيقن أنك لست حقيقة؛ أنت أجمل أحلامي التي تخيلتها ولن تتحقق؛ لن يأتي يوم تشرق أنت فيه شمس ذلك اليوم.

فكل الأحلام تتبخر مع الصباح.

أنا هي الوحيدة.. فأنت حولك الكثير تخشى أن تفقده وتبكي على فقده إن فقدته..

أما أنا ففائض في هذه الحياة؛ شيء يكمل الصورة لا يلاحظه أحد؛ ربما زهرة ذابلة قطفها أحدهم فمنحها الموت خارج الغصن؛ ربما كلمة خارج السياق لم يفهم معناها؛ ربما حامل شموع مكسور لم يعد له قيمة.

كم أحتاجك.. كأنك كل شيء وكأنك منتهى أمنياتي.. وأعرف أني فقط أشعر بالوحدة.

أحاول أن أطالب القدر بشيء يستحق حياتي".

بحثت عفراء كثيراً عن أرقام هواتف قد توصلها إلى شخص يطمئنها؛ كانت تعلم بوجود سماح صديقة وحيد وخطيبة "عمار" المصور صديق وحيد الذي استشهد في مأرب. كان وحيد قد حكى لها قصتهما الموجعة.

خلال أيام حصلت على رقم سماح فقد كانت تعمل في منظمة تخص الطفولة كما سمعت.

والهاتف يرن في الطرف المقابل احتارت ماذا تقول لسماح وبأي صفة تسأل عن وحيد؛ قطع تفكيرها صوت نسائي متعب:

- مرحباً..
- مرحباً.. الأستاذة سماح؟
- نعم.. تفضلي.
- أريد أن أسأل عن "وحيد الأمير" أعرف أنك صديقة مقربة منه؛ أنا "عفراء راجي" كاتبة وقاصة من عدن تربطني بوحيد

معرفة وثيقة؛ هاتفه لا يجيب وأرغب بالاطمئنان عليه.

- أهلاً بك عزيزتي؛ للأسف وحيد عزل نفسه عن الناس تماماً بعد استشهاد أقرب أصدقائه إليه الرجل الذي يدين له بإنقاذ حياته عقب الحادث الذي وقع له منتصف العام الماضي؛ شائف قتل في الجبهة عندما كان في زيارة إلى هناك؛ حينها كان وحيد في زيارة لعدن؛ تم إبلاغه كي يعود لوداع صديقه فقد دُفن في اليوم الثاني.

للأسف حتى هاتفه مغلق تماماً ولا يجيب على أحد؛ ربما أقوم بزيارته قريباً وأطمئنك.

ألجم الألم عفراء.. كانت تشعر أن هناك شيئاً أقوى من قدرة وحيد كي يتركها بعد أمسيتهما على ساحل "أبين" وإصراره على سرعة ارتباطهما فلا وقت لديهما..

نعم لا وقت لديهما كي يشعرا بالسعادة والاكتمال؛ النقص والفقد يلاحقهما دائماً..

الحب في زمن الحرب مغامرة وجع ليس إلا..

تنبهت كي تشكر "سماح" لكنها كانت قد أنهت الاتصال حين سرح الخيال بعفراء..

هي لا تتخيل وجع وحيد.. بل تشعره في كل روحها وحواسها؛ تشاطره الحزن على رفيقه بذات القدر وتتمنى لو يترك لها فرصة كي تخفف عنه حتى بالكلام.

ما عساها تفعل من أجله؟! وهي لا شيء بالنسبة إليه مع كل أولئك الذين حوله؛ قريبون منه؛ يمكنهم رؤيته والحديث معه..

يمكنهم سماع صوته الذي حرمت حتى منه..

- آه يا وحيد من أين لي بصوتك حين يصبح أغلى من الهواء وأثمن من الحرية وأنأى من القمر؟!! وكيف لك أن تعلم أن صوتك الذي تمنحه للجميع بلا اهتمام.. همساً أو صراخاً.. حناناً أو غضباً.. هو عندي لا يُقدر بثمن..

***

يراها في أحلامه حزينة..

فيتذكر أنه خذلها بعودتـــه إلى مـــأرب دون أن يعتـــذر أو يخبرها بما حدث؛ كان ذاهلاً عن كل شيء ومـــا زال تائهـــاً في عزلته..

وهي التي كانت قريبة من يوم تنتظره سنوات فخذلها القـــدر في لحظات..

يردد في منامه اعتذارات لهذا الحزن الذي يكلل ملامحها:

- اغفري لي يا عفراء.. خذلتك؛ أو خذلتنا الحياة حين فتحت للموت باباً جديداً.

عفراء يا حلمي السرّي الغافي بين أوردتي..

ما عاد لي عزم أو حيل على مزيد من الفقد؛ ما عاد لي احتمال لهذا العجز!!

ما زال حبك كالوطن مستحيل القدوم.. ففي طريقـــه يصـــنع القدر عثرات لا تنتهي؛ القدر خصم عتيد يفعل فينا ما يشتهي ويشق علينا ونحن نحتمل.

عفراء.. أتدرين يا حبيبتي ما الذي يثبتني إلى جدار الحياة كي لا أهوي قنوطاً؟

ما الذي يعلقني بخيط في سنارة هذا القدر؟

لا شيء سوى الأمل بأن أكون طُعماً لشيء جميـــل يســـتحق الانتظار.

أتحسس الجرح الخشن في ساعدي وأبتسم في سعادة؛ إنه الذكرى الملموسة الوحيدة لذلك اللقاء بيننا ذلك المساء؛ أتحسسه بخوف، أحياناً أخشى أن يختفي أو يزول فينطمس معلم للسعادة وشمته لحظة سُكر لم أشعر معها بألم أو جريان دم.

إنه أثر لقبلة المكان والزمان اللذين جمعانا وعلامة حب يجب أن لا تُمحى من ذاكرة جسدي مثلما لن تُمحى من ذاكرة الروح والقلب..

***

- مرحباً..
- وحيد؟ كيف أنت؟ كيف أصبحت؟ كيف هان عليك أن تحرمني أن أواسيك؟
- أعتذر يا عفراء على كل شيء؛ لكن مصابي أكبر من أي مواساة؛ لهذا أرسل لك من هنا عاجزاً حتى عن سماع صوتك أو أن أسْمعك صوتي أخشى أن أبكي بين يديك كطفل تائه..

لقد أوجعني حزنك في أحلامي يا عفراء.. فسامحيني..

- آه يا وحيد.. حزني عليك وليس منك؛ يؤلمني كثيراً أني في نهاية الأمر لا أحد ممن حولك؛ يؤلمني أني لست صديقاً سيأتي لرؤيتك؛ ولست أماً تحتضن رأسك المتعب؛ ولست أختاً تعتني بك؛ ولست زوجة تخفف عنك.. لست قريبة منك.. أنا لا شيء لك.
- لا تفكري هكذا أرجوك؛ تعلمين أن صلة الأرواح أقوى من صلة الدم والجسد يا عفراء؛ أنت شطر هذه الروح؛ فمنذ متى كان بين الأرواح قرب وبُعد في المسافات والعلاقات؛ أنت معي يا حبيبتي؛ تسكنين جسدي نصفاً لروحي يكملها رغم بعد المكان والزمان؛ فلا تتألمي أرجوك.
- للأسف الحقائق التي نلمسها فجأة بالحواس تكون أصدق

من كلام الشعراء والفلاسفة؛ لقد كنت مبعدة عنك حقيقة؛ محرومة منك فعلاً؛ أقل ما تمنيته سماع صوتك كي أطمئن عليك وكان مستحيل الحدوث؛ فكيف لا تؤلمني مسافات المكان والمستحيل والممكن؟!!

- أتعلمين ما المؤلم حقاً يا عفراء؟
- ألا أراك.. ألا نلتقي؟
- المؤلم أن نفقد الآخرين لأننا عجزنا أن نكون كما يريدون أو كما يتوقعون.
- وهل تعلم ما الأكثر ألماً؟ أن الآخرين لن يكونوا كما نتمنى وأنّا لن نحظى بسعادة وجودهم قربنا.
- بل المؤلم حقيقة هو أن يحدث هذا لنا السعادة؛ ألا يحدث شيء؛ وألا نشعر بشيء؛ ألا نفكر أننا لسنا سعداء..
- وهل الشعور بالسعادة يحتاج إلى تفكير..؟ قديماً كانوا سعداء بما هم عليه..
- لأنهم لم يحاولوا التفكير؛ لم يحلموا..
- من منا استطاع تحديد ما يريد؟ هل استطعت أن تضع سقفاً للحلم أو حداً لاشتهائك الأشياء والأحداث؟
- لم أعد أثق ماذا أريد كي أضع حداً أو سقفاً له؛ ما أعرفه أن الحلم إذا لم يتحقق يظل بلا روح؛ هائماً كالبخار أو الدخان؛ هل تستطيعين لمس الهواء؟ وتحديد شكل وسقف لوجوده؟ حولك هكذا أشعر أن أحلامي هواء أو دخان يتبعثر؟

- كم يشبه الحلم الحب.. هذا الحب الذي غدا بيننا هواء أتنفسه وأختنق به؛ فهل الحب من يأتي إلينا أم نحن نذهب إليه؟ هل يقع صدفة حقيقة أم نفتعل الصدف كي نوقعه ونتباكى أنه أوقعنا في شباكه؟
- الحب إذا أتى يكون مصادفة مباغتة؛ قد لا نفهمها أو حتى نعيش دقائقها؛ ربما الخوف من هذا الشيء الخرافي يكون صادماً لأفهامنا البدائية؛ كأننا ننتقل إلى بعد آخر لحياة لا تشبه حياتنا؛ ننفصل عن أجسادنا؛ نعيش بين البشر بشيء يشبهنا. أما نحن فقد ابتلعنا ذلك الشيء الخرافي العجيب الذي اسمه الحب؛ لكنه يلفظنا من جوفه في النهاية؛ يرتجعنا ربما لأنه لم يهضم مخاوفنا أو نحن لم نهضم دهشته؛ فشعور الخوف كان المسيطر؛ لكن ما أعرفه أننا نظل طوال العمر نحلم أن نلتقيه صدفة؛ الحب شعور لا يوصف يا عفراء لكنه أصبح حلماً في هذا الوطن..
- هل يصادف الجميع هذا الحب، هل هو مصير ينتظر كل القلوب أم أن هناك قلوباً تصر على التماس متعة الألم فقط؟
- لا ليس كذلك؛ هناك من يعيشون على شواطئه في أمان؛ لم يفكروا في الغرق أو قادتهم الصدفة إلى العمق؛ ليسوا مجانين كفاية حتى يخوضوا الحب حد الغرق مثلنا..

ما أسعدهم هناك على الشاطئ يتعايشون مع ما تقذفه أمواج الحياة بقناعة؛ يتناسلون فقط، لم يحلموا بشيء أكبر من عمل الحيوانات.. لم يحلموا.. ولم يفكروا..

من تختارهم الصدفة أو القدر العابث هم ضحايا الخيال؛ يسوقهم كالنداهة في الأساطير إلى عرض البحر. جميل كالشغف؛ ثم يتـــركهم يموتون غرقاً، ومن نجا لن يعود إلى الشاطئ مكتمل العقل. ســـيكتب الشعر تعاويذ لإيقاع آخرين كي يصابوا بالجنون مثله تماماً.

***

"أسوأ ما يمكن أن يحدث لشخص أن يكون مكشوفاً لآخر حتى العمق؛ ما أجمل أن تكون قشرتك الخارجية قوية تحمي داخلك، فالروح سهلة الخدش وحتى الكسر، ولو بنظرة لوم وعتاب.

"سميرة" زوجتي تحمل ذات النظرة الفاحصة المتمعنة التي تملأ عينيها منذ الأيام الأولى لزواجنا؛ أشعر أحياناً أنها تعري داخلي الذي يمارس خيانتها العاطفية.

ذكية بذلك القدر الذي جعلها تدرك أن زواجنا ينقصه شيء ليس بيدي أو يدها لكنه لا يعني فشل الزواج بل سبب لترك الأمور تسير بأقدارها.

لم يكن الزواج التقليدي مشكلتنا؛ فحياتنا بلا مشاكل لأني أتقبل كل شيء بصبر؛ المشكلة هي تلك الأرواح التي لا يكمل بعضها بعضاً؛ فيحدث فراغ رغماً عن النفس.

هي أيضاً رائعة لدرجة الاكتفاء بما تريد؛ منزلها وأولادها الأربعة وزوج يغدق عليها الحب والمال؛ وتستند إليه في معاركها الخاصة في الحياة.

أما لماذا أحببتُ عفراء بكل هذا الشغف؟!!

هل لأنها نصف روحي الضائع؟!! هدف آخر أسعى إليه؟!!

أم لأنها تحبني بتلك الطريقة التي يعشقها الرجل في الأنثى؟ أن أكون الرقم واحد في اهتماماتها وأحلامها؟ أن أكون مهماً لها بدرجة تثير سعادتي أنا.

كل هذا لا يهم؛ ما يهم أننا كنا سنتزوج سراً وتبقى هـــي في عدن ونلتقي كلما سنحت لنا الأقدار؛ لكن الأقدار لم تسمح بهـــذا الارتباط..

الموت حائل عن الحياة؛ يأتي ما أن يكتمل كل شيء؛ يـــنقض وينتزع الكثير فيعود النقص في دواخلنا مهولاً؛ وما أكثرهـــا طـــرق الموت في وطن رُفع فيه شعار الموت صراخاً يردد كل لحظة كـــأذان لصلاة الشياطين..

لم أعد أخاف الموت، فقد صار رفيقاً بديلاً عن كـــل الرفـــاق الذين اختطفهم؛ ولا يهم في أي وقت سينتزعني حزنـــاً وفراغـــاً في أرواح من يهتمون لي.

لا يهم بأي الطرق سيكون الموت الأقرب؟

لا يهم فالمرء يموت أجزاءً؛ أول ما يموت فيه مشاعره ربما لأنهـــا الأضعف أمام الألم.

لا يهم.. سيأتي في كل حال؛ فهذا الجسد احتمل أكثر مما خُلق كي يحتمل؛ تكفيه نفخة قدرية واحدة ليتهاوى كهـــرم مـــن ورق؛ وهذه الروح.. آه من هذه الروح نصف الميتة التي تتنفس الحبر فقط..

سأكتب كي أتنفس فقط ما دام هناك عرق ينبض.

لا يعني أني نجوت من الموت مرات أن أبقى لأشهد موت كـــل من أحبهم؟!!

ولا يعني أن أمضي إلى حتفي حثيثاً فأجد في البحث عن موت؛ لست بطلاً بما يكفي.

فالأبطال يصنعون الحياة للآخرين بأرواحهم؛ يعبّـــدون طـــرق الحرية بدمائهم.

في أوطاننا التي لا تعرف بطولة إنجازات الحياة، تصبح شخصـــاً عظيماً أمام نفسك ومبادئك، حين تكون شهيداً برصاصة ميتة تبقـــي روحك حية إلى الأبد.

الأبطال الحقيقيون هم من ينسون أنفسهم من أجل الآخـــرين؛ وفي النهاية بعد أن يموتوا ألماً يذكرهم هؤلاء الآخـــرون ويصـــبحون أبطالاً في ذاكرة الجميع.

وقد لا يكونون مجرد أبطال في ذاكرة أحد.. بل فكرة ثورة.

* * *

(12)

أنا لا أتكئ علىٰ قلب أحد..

قلبي هو عكازتي الوحيدة؛

فإذا انكسر.. فقدت رغبتي في الوقوف مجدداً.

رسالة مقتضبة لا تعني أن كاتبها لم يجد ما يقوله؛ رسالة مقتضبة قد تعني أن هناك الكثير من الخوف في قلب كاتبها خشي أن يقوله أو عجز أن يلمّ به؛ رسالة عفراء التي وصلت إلى هاتف وحيد كانت كثقب أسود الحروف ابتلع ما تجمع من شتات نفسه وقذف به إلى بعد آخر من الحيرة والألم:

" عزيزي وحيد.. هل يمكنك القدوم إلى عدن؛ يجب أن تفكر في الخروج من منزلك وتغيير جو الحزن الذي تعيشه؛ فقد مر شهران على رحيل صديقك".

شهران!! الزمن ينفرط بسرعة لكن الأوجاع عصبة قوية لا تتزحزح!!

عفراء تريده أن يسافر إليها تاركاً في مأرب أحزانه كقميص متسخ؛ سينزعه ويسافر ليغير جو المآتم وحين يعود يكون ذلك الحزن قد اهترأ وتلاشى..

كيف له أن يذهب إلى عدن ليحتفي بحبه وينعم بزواج جديد وصديقه الأقرب يتآكل جسده في التراب!! في أقل مظاهر الوفاء يجب عليه أن يحرم هذا الجسد راحته تضامناً مع جسد صديقه الذي يعبث به الدود..

أرسل إليها رسالة أشد اقتضاباً كأنه يعاقبها على تفكيرها ويعاقب روحه أيضاً بحرمانها من تعاطف "عفراء".

"عزيزتي.. أعتذر إليك؛ الأمر صعب في الوقت الحالي".

وعفراء تقرأ حروفه الجامدة؛ سالت دموعها غزيرة؛ أكلما تدانيا داخل مساحة الوطن تناءت مساحات الشعور وتقلص التفاهم بينهما؟!!

كيف لم يدرك كل ذلك الشوق والخوف أن تفقده في حروفها؟!!

هناك أحلام مؤلمة بقدر جمالها؛ و لم يكن وحيد سوى حلم موجع لها؛ كانت مقبلة على سفر من أجل والدتها وكم كانت تتمنى رؤيته فقط قبل السفر.

لم ترسل عفراء بعدها لأيام طويلة.. تواسي نفسها بحزن.. لعله يرسل.. لعله يأتي.

و لم يأتِ.. و لم يرسل.

غرقت في الصمت كعادتها حين يصدمها الواقع وتدرك حجمها الضئيل في مجابهته؛ تتوق للبكاء بصوت عال ولا يسمعها سواها؛ وتعلم أن البكاء ذاته يصبح رفاهية إذا لم تعلن أسبابه على الملأ.

في صباح سفرها كتبت إلى وحيد كلاماً كثيراً ربما غير مترابط، لكن كما تحب في رسائلها إليه؛ تكتب كل ما تريد أن تقوله حتى ذلك الذي لا يحب أن تقوله هي أو ذلك الذي يطلق عليه لقب الهراء وهواجس الحدس..

"عزيزي وحيد.. أنت من علمني كيف الهروب من مواجهة الحديث..

ها أنا أرسل إليك وأنا في طريقي للسفر خارج الوطن مجدداً؛ فقد توعكت صحة أمي كثيراً بعد رحيل أبي؛ وتقرر سفرها للعلاج في "مصر" ولأن أخي مشغول بعائلته؛ و لم يعد لدى أمي

سواي وليس لدي سواها سأرافقها في رحلتها العلاجية..

كنت أتمنى رؤيتك فقط.. اشتقتك وظننت أن مسافات الجغرافيا هي التي تحرمني منك ليس إلا؛ لكنها تحولت إلى مسافات عدم التفاهم.

إن الشوق الذي لا يحتمله قلبي ويحتمله قلبك عبء فائض؛ سأضعه جانباً يا وحيد كي لا أثقل عليك.

لا بأس يا وحيد سأكون بخير.. لا أريد أن يكون حبك التزاماً تحمله على ظهرك؛ فالحب ما أن يغادر القلب يصبح حملاً ثقيلاً ويغدو كريها. سأكون بخير حتى بدونك..

فيبدو أن لا أمل لنا بلقاء قريب؛ كان لقاؤنا قبل وفاة رفيقك زلة حظ اعتذر القدر عنها بحرمان أطول؛ لا أدري هل ينقضي يوماً؟ أم تسبقنا الأقدار بشيء أقسى؟

أنت لم تخذلني؛ كعادتها الحياة تخذلنا معاً.

أتمنى أن تهتم لنفسك.. وأن تكون بخير لأجلي.. وداعاً".

وصلت رسالة عفراء إلى هاتف وحيد في أول يوم يقرر فيه مغادرة منزله؛ فامتلأ قلبه بالوحشة، كأنها تغادر من أمامه ومن بين يديه.. لقد آلمها رفضه السفر إليها؛ وآلمه أنها لم تدرك مدى حزنه على صديقه.

هل كان سيتركها تذهب بمفردها لو كانا قد تزوجا؟ عفراء دائماً لا تملك قرارها؛ فحيث قرر أهلها الذهاب تصحبهم ككل ما يحتاجون إليه في سفرهم.

لماذا يشعر بالضيق لرحيلها هذه المرة؟!! هل لأنه قسى عليها برده البارد؟

هل يخشى أن يدب اليأس في قلبها وتختار طريقاً لا يجمعهما؟

لم يرد على رسالتها مودعاً أو مطمئناً؛ ففي قلبه فـــراغ حـــزين كأنما تخلت عنه برحيلها رغم البعد الدائم بينهما.

عزف عن الخروج ذلك اليوم.. لكم يكره لفظ الوداع وفكـــرة الفراق.

* * *

أيام أخرى تدفعها عفراء بمشقة انتظار رد من وحيد.. ولا يرد.

تهرب من التفكير في قياسات إحباطها الذي لم يعد يتسع له صدرها ففاض على حركاتها البطيئة وعزوفها عن الخروج رغم مناشدة والدتها أن تزور صديقاتها في القاهرة. لم تكن ترغب في رؤية أحد سواه.. التفكير فيه يشعرها بقرب مفترض.

وظهر قبالتها فجأة كحلم يتحدث بصوت عميق قادم من أعماق بئر الوطن..

والدتها التي تبحث عن قنوات يمنية في الرائي بعثته أمامها في إحدى تلك القنوات يتحدث عن الوضع الإنساني في اليمن..

تسمرت وهي تهتف في والدتها:

- لا تحركي القناة يا أمي..

إنه أمامها تماماً إنما لا تلتقي عينيه؛ لا يراها هي المكلومة في عاطفتها؛ يرى أوجاع المئات كي يرصدها بدقة؛ ويتجاهل لهفتها إليه كترف صعب في الوقت الراهن.

عندما تمتد كفه لتعديل وضع نظارته وهو يبتسم لملاحظة مقدم البرنامج تبتسم هي لابتسامته تلك..

"ابتسامته شمس تطل من وجه شمس؛ شروق يتلوه شروق ينتهي بعتمة شوق تشعل قلبها.

يا لقلب العاشق كيف يهنأ برؤية من يحب ويتعذب لشوق عذب".

لقد نحل كثيراً.. صار أكثر تقطيباً وحزناً؛ أكثر جمالاً وجمـــوداً كتمثال حميري قديم يحمل على عاتقيه مجد ماض عظيم ووزر حاضر ملوث وتطلع مستقبل معتم.

تماماً كفكرة الرائي هذا.. قريب أنت ولكنك حلم أقـــرب إلى الخيال والوهم.

تباً لي؛ ليتني لم أكن كاتبة يروقها تطريز الكلمات التافهة عـــن مشاعرها؛ ليتني أتعلم الصمت كامرأة لا تكتب و لم تعرف إغواء بوح الحروف.. وحيد ليس لي حتى أمنية..

لست من عالمه المكتظ بالأحداث؛ أنا ركن صـــغير يضـــيع في مساحات الازدحام.

كم يخيفني هذا الهطول الكثيف للحزن على قلبـــي حين تغيب؛ يحجب عني كل شيء سوى افتقادك أراه في كل ركن من روحـــي، فأنت تملأها وحدك.

كل يوم أعد صيغة جديدة للعتاب أرق من سابقتها؛ أثبتها على جدار ذاكرتي كي لا أنسى إذا طال غيابك؛ رغم أني أعرف أن كل صيغ العتاب الشديدة والرقيقة ستسقط أرضاً وتتلاشى كقطع ثلـــج باردة ما أن تشرق ابتسامتك المضيئة.

***

أخيراً تذكّر "وحيد" ذلك الركن الصغير المسمى عفراء..

استيقظت صباحاً لترى رسالته البائتة في هاتفها؛ صرخت بسعادة ما أن طالعها أسم المرسل؛ عاتبت الكلمات كيف لم تيقظها حين أتت في قلب الليل؛ كيف لم تستدعها روحه التي تعشق السهر وهي نائمة.

"مرحباً عفراء.. أعتذر عن تأخر ردي كل هذا الوقت..

سامحيني، خذلك عجزي عن قرار آخر بالقدوم إليك فسبقني القدر برحيلك عني.

لم يعد يصنع الغياب فرقاً لديّ؛ ستبقين أجمل أحلامي التي في صدري؛ أنت معي تحقق الأمل أو انتهى العمر دون الوصول؛ لم أعد وحيد ذلك المبتسم للرزايا؛ صرت كوطني مليء بالحزن والندوب؛ كبّلني العجز والخذلان حتى صرت حلقة متينة من هذا الخذلان.

الأشياء لا تأتي كما نتمنى يا عفراء نحن لا نختار أقدارنا حقيقة؛ ولا نختار أوطاننا؛ ثم ليس لنا الاختيار في إنقاذها أو إنقاذنا.

ما أن غادرت منزلي عقب رسالتك حتى تلقفتني الهموم كغائب أثير؛ تظنني هجرتها فارتمت بثقلها على صدري أحملها من قضية إلى أخرى ولا أجد لي راحة.

لم نكن نتخيل أن الحال سيصل بالناس إلى هذا المآل من الفقر والعوز، أو أنه سيستمر حتى يصل إلى مجاعة مروعة مع غياب الدخل لدى الغالبية..

حقاً هناك من اغتنى من هذه الحرب إنما في المقابل الغالبية وصلت إلى حضيض المعيشة؛ كيف سيشعر المتخمون بهـــؤلاء؟!! وأحـــلام الفقراء في عيون الأغنياء تافهة؛ يرمونها إلى سلة القمامة كل يوم.

إننا نحاول التظاهر بثقة الجهل فيفزعنا خوف المعرفة؛ نحن نمضي إلى هاوية سحيقة ولا تباشير انتهاء لهذه الحرب التي تحـــرث الأرض لتزرع الشقاء لأجيالنا القادمة.

اغفري لي يا عفرائي.. لا أجدني أفصل همي عن هموم الناس فأنا منهم وأعيش المعاناة بتفاصيلها الدقيقة. كوني بخير حبيـــبتي البعيـــدة دائماً".

انطفأت شاشة الهاتف وهي محدقة إلى الكلمات قبل أن ينطفـــئ داخلها شيء كان مضاء كشاشة الهاتف..

لم يقل أنه يشتاق لي!!

قال إن الغياب لم يعد يحدث فرقاً؛ لم أعد في خياله سوى حلم؛ وهو يعيش واقعاً لا مكان للأحلام الوردية فيه؛ واقع حرب أزاح كل حب.

لقد استسلم وحيد للبعد وانتهى الأمر.

آه يا وحيد، نصيبـــي منك هو الفقد دائماً؛ أستسقيك الكـــلام فلا أنت تمطر ولا قلبـــي يجدب من هذا الحب؛ كمطر السماء يسقط أرضاً فيصبح وحلاً وطيناً، هكذا يسقط كبريائي شوقاً إليك؛ وأنـــت لا تبالي فتقول ولو كذباً: اشتقت إليك!!

كل تلك المسافات التي بيننا أزرعها أنا حباً واشتياقاً؛ ويزرعهـــا غيابك ألف سؤال، أولها لماذا ومنتهاها متى؟ تلك المسافات استحالت ألف حزن وألف جدار بيننا.

أنا لا أكتب لك الآن.. أنا أكتب لحزني هذا الممتد حتى الأفق؛ أرجوه فقط أن يَخِفّ فلا شيء في الحياة يستحق.

في كل دقيقة تمر يفقد قلبـــي ريشاً أكثر.. ولن يطير مجدداً..

أنا مقيدة بأحلامي فقط؛ أحيط نفسي بقفص الوهم وأنتظر أن أحلق.

كيف لي أن أفتقد من لم يأتِ إلا خيالاً؟ سنوات مـــن الخيـــال والحلم فمتى أستيقظ؟

وحيد قانع الآن بين أهله؛ نذر وقته ونفسه لقضيته؛ من الحب أن لا أزيد في أحماله؛ من الحب أن أبتعد خيالاً كما البعد حقيقة.

يمكنني أن أحتمل كل أثقال الشعور؛ إلا شعوري أني عبء ثقيل عليك يا وحيد..

***

(13)

بلغوا عن الناس ولو وجعًا كي لا يقتلهم الصمت أيضًا؛

فالصمت عن الحق أحقر أنواع الضعف.

سوء الأحوال الجوية أو سوء حظي الذي جعل خروجي بعد اكتئاب أيام يصادف هبوب سحابة رملية كثيفة وخانقة تبدو اعتيادية في مأرب.

أقرب ما أرى عبرها هو اغترابي داخل وطني؛ فقد حجب غبار الصحراء الرؤية كما حجب غبار التاريخ الحوثي التفاؤل بغدٍ أفضل يكون فيه الأمان ولو مجازاً.

فالأوطان التي تحتل الحرب شبراً منها تشتعل كأعواد الثقاب المتجاورة.

يضيق صدري فلا أدري أمن كمية التراب الذي أستنشقه مع أنفاسي أم كمية الشوق إلى ذكرى مسقط رأسي؛ فحتى الذكريات تكون عابقة وخانقة كلما صارت بعيدة تتطاير كهذا الغبار في الذاكرة.

الحنين إلى الوطن وأنت داخل الوطن هذا هو الشعور الأصعب على الإطلاق.

وطن تضاريسه كالحة على البسطاء؛ تقلباته قاسية وصعبة لا يحيا فيها سوى الهوامير الكبيرة والأفواه الواسعة القادرة على ابتلاع كل شيء بما فيهم البشر.

مثل هذه الأفواه فقط تنشب أظافرها في الشرعية أو في الانقلاب.

أما البطون الجائعة فلا تعرف شرعية سوى شرعية الرغيف ولا تعرف انقلاباً سوى انقلاب الجوع..

الفقر والصمت يزحفان إلى كل البيوت ما عدا بيوت رعاة الحروب؛ البطون الجائعة ليست علامة صمود ولكن دليل خوف شنيع.

لم نعد نسمع سوى شعارات الصمود منقطع النظير من الطرفين؛ إنه صمود الأموات في برزخهم فقط.

الحروب حين تأتي تصطحب معها الجوع والمرض؛ ثلاثي متناغم ومتواطئ ضد الإنسان.

ربما هو تنوع الموت؛ فحتى الموت على نمط واحد يثير الملل.

النازحون في مناطق الشرعية يتقاسمون الجوع والموت ذاته الذي في مناطق الانقلاب.

ربما هما القاسم المشترك بين هذا الشعب على طول وعرض جغرافيته الصامدة عناداً.

في مأرب يتضافر عليك الجو الخانق والجوع والخوف من المجهول؛ مدينة تنتشلك من نفسك فلا وقت للتباكي على شيء خلفك..

ستدوسك أقدام الحياة المهرولة في سرعة نحو العمل بلا كلل.

إنها مدينة مكتظة بالزحام تنمو سريعاً كأشجار الأساطير؛ عالم يلتهم كل شيء بنهم..

يلتهم الفرح والحزن والخوف والتفاؤل.. الكسل والتردد وجثامين الشهداء.

وكأن الزمن يختلس مني هذا الوقت المحدود الذي منحه لي كي أعيش عمراً؛ يسترده ضياعاً وشتاتاً وإحباطاً؛ يتبدد كدخان احتراقي

وأنا ألهث خلف الوقت؛ شبح العجز سكنني و لم يعد يطاردني؛ ماذا أفعل أنا مبحوح الضمير في وجه الخراب والغدر.

قبل أيام استقبلت مأرب مزيداً من الشهداء تضاربت الأقوال حول استهدافهم من قبل قصف الأشقاء على مناطق الجيش الوطني في منطقة "نهم"؛ أكثر من عشرين قتيلاً فيهم قيادات كبيرة؛ هكذا تمت تصفيتهم ببساطة لأنهم ربما تقدموا أكثر مما هو مرسوم لسير المعارك التي لا تتقدم.

ليست المرة الأولى التي تقوم فيه طائرات التحالف باستهداف قيادات ومجندين في الجيش الوطني تحت ذريعة الخطأ..

لقد أصبح جلياً أن التحالف يقتل في صفوف الشرعية أكثر مما يقتل في صفوف المليشيا.

وأن الوطن في براثن ظلم الداخل وقهر الخارج.

أي حزن غمر القلوب بهكذا خذلان؟!!

وماذا يُحاك لهذا الوطن وللمنطقة كلها؟ وحتّام تستمر معاناة الشعوب إلى أن يتم الاتفاق على خارطة جديدة ترضي جبابرة الأرض؟

في هكذا حال من هو ذلك الحالم الذي سيفكر بأمنيات قلبه وعاطفته؟!!

لم أعد أجد رغبة حتى في رسائل البوح والثرثرة معك يا عفراء؛ تكاثرت عليّ هموم الحياة فأنستني هموم القلب.

أشعر أننا سنراوح هكذا زمناً طويلاً.. بين حرب وسلام؛ في منطقة كالحة تصهر الشعب معاناة وصبراً على أمل حدوث معجزة أن ينتهي كل هذا.

صرت آوي إلى الفراش كشخص لم يرغب في الذهاب إلى النوم كي يرتاح..

بل الذهاب كي يموت ميتة صغرى ليرتاح من كل شيء حوله.

لم أعد أنام.. أضع رأسي على الوسادة وأضم ساعدي إلى صدري وأتأمل الفراغ الشاسع داخلي؛ أشعر أن ما في رأسي ينصهر وأن دماغي يسيل من أذني حتى أني أمد أصبعي فألمس سائلاً يقطر من أذني حقاً؛ أكتشف أنها دموع تشق طريقاً مستقيماً لا يعرف هذا الارتباك في تفكيري.

نباح كلب خارج المنزل؛ تنبح مباشرة تحت النافذة فيجاوبه صدى نباح الفراغ داخلي.

حتى الريح التي تضرب أغصان الشجرة القريبة تتشبث فروعها بنافذتي؛ الطبيعة كلها داخلي تعربد عاصفة عابثة.. فلماذا أرى الفراغ بامتداد الأفق؟!!

كم أكره نباح الكلاب!!

منذ كنت طفلاً وأنا أحمل لأصوات حزنها كراهية مبهمة؛ فدائماً يصادف حزني نباح الكلاب الشاردة في أزقة الأحياء التي أسكنها..

المؤلم أنني لست حزيناً بما يتناسب مع حالتي.

لست أشعر بالفجيعة؛ أشعر أنني مفتت؛.. نعم مفتت وكل جزء مني يشعر بشيء مختلف؛ هكذا يحدث لشخص ينفجر فيه لغم لم يكن مزروعاً سوى في جوفه؛ يتطاير أجزاء مفتتة؛ جزء مبتور يموت لفوره؛ وجزء معلق يتألم بأمل؛ وجزء ينزف بصمت.

وأنا فقط أنظر إلى أجزائي المبعثرة وهي تعاني الكارثة.

هل أتألم؟.. هل أبكي؟.. هل مت؟
أنا صامد..

أمثالنا يصمدون في وجه الألم ليس لأنهم أقوياء بل لأن لا حيلة لنا في تجاوزه أو احتمال الانكسار؛ نحن نلتحم بالألم فقط ونصبح شيئاً واحداً.

***

في لقاءات قليلة جمعت "وحيد" وحافظ بسماح، كان من السهل أن يخمن وحيد تلك الحالة التي تنتاب صديقه حين رؤيتها؛ إنه يهتم لسماح كثيراً إن لم يكن غارقاً في حبها؛ يتحين الفرص للقائها والحديث معها فيما يخص عملها في منظمة الطفولة؛ يسهب في وصف تفانيها ورقة قلبها مع الأطفال رغم أنهم مجندون خاضوا أهوالاً في هذه الحرب.

تمنى وحيد أن تلمح سماح هذا الشغف في حافظ؛ أن تبادله الاهتمام وأن ينسجما معاً فيكون تعويضاً لعاطفتها التي أنهكها عمار إهمالاً قبل أن يسحقها حزناً بموته.

لكن سماح تبدو كآلة بلا شعور في تعاملها مع الرجال حولها؛ يتبادر لمن يرى ابتسامتها المرسومة على شفتيها أنها للوحة جامدة رُسمت كجزء من وجهها وليست حقيقية؛ يسقط ذلك القناع حين تحادث طفلاً يشتاق إلى أهله فتبكي لبكائه أو لفقدها هي.

استأجر وحيد شقة جديدة متواضعة عوضاً عن الشقة التي جمعته بشائف وحافظ كل صباح والتي استأجرها شائف كمقر للصحيفة المرتقبة؛ أصر على تغيير المكان الذي ضمّ تلك الرفقة النادرة؛ تعبت روحه من ذلك الحضور لرفيقه فكلما دلف إلى الشقة يتراءى له شائف كأنما سيدخل من الباب باسماً متفائلاً كعادته؛ يلقى تحيه السلام كاملة بتفخيم محبّب؛ صدى صوته عالق في جنبات الحجرات

الثلاث؛ في مطبخ الشقة حين يصر على صنع الشـــاي لأي ضـــيف جمعتهما صداقة قديمة.

ترتيب الأثاث البسيط جعله يتذكر مكتبه القديم في شـــركة توزيع المطبوعات؛ قطع الأثاث التي انتقاها بعناية وحب مع كـــل ذكرى جميلة مرت معها؛ لقد تعلم بسهولة أن لا يتعلـــق بشـــيء مادي بعد أن انتزعت المليشيا كل ما يملك من سيارات وأثـــاث وممتلكات؛ الذي لا يستطيع أن يتعلمه هو تقبل انتزاع الموت لرفاقه وأحبائه.

حافظ الذي يراقب حركات وحيد الجامدة وهو يرتب كل مـــا يقع في يده يشعر بانطفاء حماسته لذلك الحلم الذي اقتطـــع رحيـــل شائف جزءاً منه.

أسند ظهره إلى الجدار بإرهاق وهو يقول:

- ما رأيك بكوب شاي؟ لدي ما أقوله لك.

قذف وحيد صندوق الورق من بين يديه وهو يقول شارداً:

- ومن يجرؤ أن يرفض كوب شاي من يدك وأنـــت تلميـــذ شائف في صنع الشاي المعتق؟

أسرع حافظ لإعداد الشاي في حين رتّـــب وحيـــد مكانـــاً لجلوسهما وسط فوضى المكان.

رغم شرود ذهنه إلا أنه يشعر بما يريد حافظ الحديث عنه؛ لعل الحديث عن سماح هو الشغل الشاغل لصديقه الشاب.

جلس وحيد على الأرض مادا ساقيه على البلاط العاري وحين وضع حافظ الصينية رفعهما ليقرب الشاي منه بلهفة مازحاً:

- أنت شاب صالح يا حافظ؛ داوم على مثل هذه الاقتراحات.

ضحك حافظ وهو يقول:

- ما دام الشاي يساعد على انفراج أساريرك سأداوم على صنعه هنا وأستغل تأثيره في بعض الاستشارات منك.
- ماذا لديك؟
- سماح.
- لقد خمنت. هل تعرف قصتها؟
- نعم وأعرف "عمار" رحمة الله عليه.
- إذاً فأنت تعلم أنها دفنت الكثير معه.
- يكفيني ما تبقى منها يا أستاذ وحيد؛ وهو كثير.. وعندي أمل أن يحيي الحب الموات فيها.

ابتسم وحيد بتعاطف؛ الحب شيء عجيب.. يجعلك ترى فيمن تحب فوق ما يحتمل من جمال ومثالية؛ تذكر عفراء.. كيف يصنع وجودها الفرح والحزن معاً في قلبه..

أيقظه من شروده صوت "حافظ" وهو يقول على استحياء:

- هل تحادثها يا أستاذ وحيد؟ حدثها عن رغبتي في الزواج بها بأي شروط تريدها.

ربّت وحيد على كتفه وهو يقول:

- سأفعل وسأقول لها أنك تعويض من الحب لقلبها الجميل.

ابتهجت ملامح "حافظ" وقفز من مكانه بنشاط قائلاً:

- سأكمل ترتيب المكان كما يعجبك؛ فقد صرت أفهم ذائقتك في كثير من الأشياء؛ ليتك تذهب إليها ونلتقي عصراً هنا.

قام وحيد من جلسته وهو يضحك قائلاً:

- ليتك أخبرتني منذ الصباح؛ فعمل الخطّابة يناسبني أكثر من عامل التأثيث والصيانة.

تناول جاكيته المعلق خلف الباب وأخرج هاتفه وهو يبتسم في وجه حافظ المترقب.

هاتف سماح أنه في الطريق إليها؛ كانت في حماسة معتادة لعملها؛ فهناك إعداد لحفل سيتم فيه إعادة كوكبة جديدة لأطفال قصّر من مجندي المليشيا إلى أهاليهم بعد أن وقعوا في الأسر لدى الجيش الوطني.

***

في مكتبها المتواضع في المنظمة كعادته استمع وحيد لسيل الأحداث والقصص الموجعة التي تسردها سماح والتي تواجهها في عملها؛ كل مرة يجثم الحزن على صدره ويمتلئ قلبه بالضيق من مأساوية ما يحدث لطفولة هذا الوطن.

أطفال قصّر شاهدوا أهوال حرب لا يطيقها البالغون بحاجة إلى تأهيل طويل كي يشعروا بطفولتهم من جديد.

قاطعها قبل أن تتشعب في سرد حكاياتها كعادتها قائلاً:

- أتيت إليك بأمر يخصك أنت هذه المرة؛ وابتسم مستطرداً: أنت تعرفين "حافظ" صديقي وزميلي؟ الرجل يحبك يا سماح وراغب في الزواج؛ لا أطلب رأيك إنما فرصة كي يحدث بينكما شيء ربما يقنعك بالارتباط.

سكت مبتسماً وهو يشاهد حاجباها يرتفعان في استغراب حقيقي كأنما لا يحق لها أو لأحد التفكير في شيء كهذا!!

وعاد يقول أمام صمتها المبهوت:

- عزيزتي سماح.. أنت لن تبقي كل عمرك بلا ارتباط برجل؛ حافظ هو هدية السماء إليك بقلبه الطيب المتفاني حباً وتفهماً؛ يعلم تفاصيل قصتك مع عمار ويقبل بما يجود به قلبك والزمن.

زفرت بحرارة رغماً عن محاولتها التظاهر بالهدوء:

- لقد لاحظت اهتمامه يا وحيد؛ لكني عاجزة أن أكون شيئاً

لأحد؛ أشعر أن مقدرتي على الحب ماتت مع عمار؛ دفنت رغبتي في الحب معه.

- أنت لا تعرفين داخلك كما ينبغي يا صديقتي؛ كل هذا الحب والعطاء لأطفال أتونا مقاتلين يصدر من نبع حب لا ينضب .بموت رجل أعطيته ما يستحق، ولكن الله اختاره إلى جواره؛ لا يحق لك الموت وأنت على قيد الحياة.

كل ما أتمناه أن تعطي نفسك فرصة أخرى قبل أن تمنحي حافظ تلك الفرصة كي يتقرب منك؛ عديني يا سماح أن تحاولي فقط؟

ارتسمت حيرة مندهشة في عينيها وهمست بصوت مرتعش:

- أشعر كأني أخون عمار بهذا التفكير..

ابتسم وحيد بشفقة:

- أنت تبالغين.. ماذا لو أن عمار كان حياً وأنت مت لا قدر الله؟ صدقيني سيتزوج ويحب ويعيش محتفظاً لك بأجمل ذكرى..

تذكر وحيد عمار حين كان يشكو من شغفها وتعلقها المحموم به؛ ربما لم يحبها بتلك الصورة التي تتمناها امرأة أحبت بكل عاطفتها الجامحة.

ظل وحيد لوقت طويل يرغّب لها مجرد محاولة التواصل مع حافظ و لم يتركها إلا وقد وعدته بتقبل التواصل معه.

في طريق عودته إلى منزله ظهراً كان يفكر في علاقته المبتورة بعفراء..

لطالما شعر أنها الجزء الخيالي من حياته كحلم أو رؤيا منام جميل؛ آلمه أنها لم ترسل له منذ فترة عدّها طويلة كثيراً بقياس الشوق..

لم تتفهم حزنه الكظيم على صديقه؛ لم تتفهم صفعات القـــدر المتوالية على ضعفه البشري حتى أعجزه عن خطوة ترضي قلبيهمـــا معاً.

لا يدري حقيقة كيف تفكر النساء؟!!

تتركك في منتصف كل شيء لأول وهـــمٍ أنهـــا لا شـــيء في حياتك؛ مهما كانت قريبة من روحك وتدرك ما تعاني حولك مـــن هموم إلا أن أقل اهتمام بها سينسف قلبك الذي قدمته لها كأن لم يكن أغلى ما تحب وتتمنى.

تباً لعقول النساء..

وقف في منتصف الطريق ليكتب إليها ما يجيش في نفسه قبل أن ينشغل وينسى نفسه ومشاعره كعادته.

"عفراء..

حين تكون واحتي قيظاً؛ وشمسي غائبة؛ أين يسير قلبـــي في كل هذه العتمة؟

إذا لم تفهمني شطر روحي كيف يجبر الحب كسر هذه الروح؟

أطلت الغياب في غيابك يا عفراء.. وكأنـــك تعـــاقبينني بهـــذا الانقطاع..".

***

معذرةً..

أنا لا أملك إلا وجهـًا واحداً؛

إذا كنت فيه أتألم..

من أين آتي لكم بوجهٍ آخر يتبسم.

الأحداث الأخيرة أزاحت الكثير من ضباب الرؤية حول التهاون في حسم الحرب عسكرياً أو سياسياً؛ تصريحات متوقعة تصدر من وزراء الشرعية حول ما يحدث في الخفاء؛ واستقالة البعض ممن يراهن الشعب على نزاهتهم كالوزير "جباري" جعلت مؤيدي التحالف يعضون أصابع الندم فاللعبة أكبر من مساعدة صديق أو شقيق..

كل التضحيات والخراب لا يعني شيئاً في ميزان القوى؛ إنها ضريبة حرب ولا بد من دفعها ولن يمرر إلا ما يريده الكبار.

وتنتهي أحلام الحسم العسكري عند فرض الحل السياسي لكن بشروط الأقوى والأقوى هنا ليست مصلحة الشعوب أبداً.

آذار في تاريخ المليشيا المظلم صار موعداً للاحتفاء بالخراب؛ بعد أن كان موعداً لقدوم الربيع في اليمن؛ يحتشد الآلاف في أكبر ميادين العاصمة؛ ميدان السبعين ليحتفلوا بقصف طائرات التحالف الذي أخفى معالم العمران الأبرز من وجوه المدن اليمنية.

بعد ثلاث سنوات من الحرب يحتفي الحوثيون بالصمود على ظهور الشعب بإطلاق سبعة صواريخ على العاصمة الرياض.. تليها خلال أيام صواريخ أخرى تؤكد القوة المتنامية في إصرار لإثبات وجود متفق عليه من كل الأطراف..

فحتى رد التحالف على كثافة الصواريخ كان مجزرة مروعة في تهامة ضد نازحين أبرياء..

تهامة المنسية صار ذكرها قيظاً كأحداثها الدامية..

كجوها الرتيب الساكن؛ كحالها الذي يـــراوح بـــين الجـــوع والقتل؛ لا تُذكر مناطق الفقراء كتهامة إلا في إحصائيات الكـــوارث البشرية أو الطبيعية.

تهامة الأوفر موارد والأشد فقراً عانت التهميش ونهب المـــوارد سابقاً، وتعاني الاحتلال المليشياوي بجبروته وسرقاته الفاضحة حالياً؛ وأخيراً وهبتها الحرب طرفاً آخر هو قصف التحالف الجائر بلا هوادة وبكل استخفاف.

نقمتها أنها تهامة الغنية بذاتها لتتسلط عليها كل القوى في تجاهل لمعاناة ثلاثة ملايين ساكن يفتقدون أبسط حق في الحياة.

تهامة التي ضربت أهاليها مجاعة على مقربة من المتخمين شـــبعاً وترفاً، تضربهم صواريخ التحالف لتنهي فقرهم وحياتهم بكل بساطة.. ألا يعد هذا حلاً من حلول التحالف؟!

معاناتهم صعبة التصديق في عقول الطبقة الرخوة مـــن البشـــر، فشظف العيش لا يحتمل عند المنعمين.. ربما في موت هؤلاء راحة لهم من مرارة القهر والظلم.

تهامة جوهرة البلاد تحولت إلى قطعة فحم تحترق لكثرة الوقادون حولها.

ففي صراع القوى يذهب الضعفاء من الفقراء الأشـــد بؤســـاً وشقاء ضحايا من أرقام فقط.

نازحو المخيمات أولئك المهجرون من ديارهم تذروهم الحروب كهشيم من عصف مأكول.

يعانون أسوأ الظروف وأحلكها في فرار من مصير أشـــد ألمـــاً ليكون الموت هدية الصبر والشقاء لهم.

هل وجوه هؤلاء الكالحة تعباً تقف حائلاً أمام أطماع الـــداخل والخارج في أرضهم؟

أي نوع من المساعدة يساعدهم التحالف؟!

لا أخطاء في هذه المجازر إنما هي خطايا تشتد قبضتها على رقاب المتحالفين، فدماء أطفال تهامة لن تكون رخيصة.

الرخيص تلك الوعود الهلامية بتحقيق يظهر أسباب هذا الحقـــد والحقارة، والأرخص الصمت المقابل في كل مرة.

منذ القدم تأصلت نظرة الأدنى والأعلى عند البشـــر بعضـــهم لبعض ودائماً هناك فئة لا تقيم وزناً لحياة فئة أخرى.. ربما لهذه النظرة علاقة بحقد قابيل ضد أخيه..

إنها نظرة الفوقية الموجهة نحو من هم "أقل" في نظر الآخر.

الأقل قوة.. الأقل متاعاً.. الأقل حيلة وحالاً وهم الأكثر بساطة وفقراً وضعفاً.

يقابلهم الأكثر قوة وبطشاً واستخفافاً وأكثر حقـــداً والأقـــل أخلاقاً وإنسانية.

***

- هذه القدم – وأشار إلى قدمه اليسرى – أحرقوها حتى تناثر لحمها، عندما كان يحرقها السجان قلت له: «تعشى ويهنأ»، قال لي: ماذا قلت؟ قلت له: أنت تحرق رجلي.. حسبتك جائعاً تريد أن تأكل، هذا الفعل ما سمعنا عنه إلا في بورما..

فغضب وجاء بمثقاب وأحدث في فخذيّ ثقبين سيظهران في كشف الطب الشرعي.

إنه "جمال المعمري" وهو يروي قصة اعتقاله وتعذيبه في سجون الحوثيين..

معتقل قضى ثلاثة أعوام خلف القضبان رهينة تعذيب وحشي فقد خلاله نصف جسده. وأفرج عنه في اتفاق لتبادل أسرى حرب مع معتقلين مدنيين؛ خرج من معتقله مشلولاً فاقداً للقدرة على الحركة ليستقر في مأرب فاضحاً كل الأساليب الوحشية التي لا تخطر على بال يعذب بها أناس ربما جريمتهم الوحيدة منشورات رأي على صفحات مواقع التواصل..

أكثر من ثلاث سنوات قضاها الشيخ القبلي "جمال المعمري" في سجون الحوثيين في صنعاء ذاق خلالها صنوفاً مروعة من التعذيب انتهت بتحويله إلى كتلة لحم احترق منها ما احترق ليبقى منها شاهد حي لعشرات الانتهاكات التي تحدث في المعتقلات ويذهب ضحيتها عشرات القتلى تحت التعذيب دون أن يعلم

ذووهم مصيرهم أو كيف قُتلوا ما دامت أوبئة السجون كالكوليرا سبباً للموت.

قصص الاعتقال تتصدر المشهد وتسم المرحلة كأقبح مراحل الحكم الجبري في اليمن.

كل يوم تقذف المعتقلات أشلاء معتقل أو ما تبقى منه، ويعد محظوظاً، فليس من المفقودين الذين لا يُعرف باتوا على الأرض أم في جوفها.

***

أواخر نيسان..

تعز بؤرة مشتعلة لا تهدأ معاركها الجانبيـــة؛ يشـــعلها أبناؤهـــا العصاة؛ ويطفئها أبناؤها الغيورون.

حلم الدولة الذي كانت هي نبعه الأول صار عسير الفـــرض؛ صعب السريان في فوضى أطراف تعبث كي تستمر.

كلما قلنا سينطلق منها جناح الدولة الآخر لمـــأرب؛ احتـــرق ريشها بحرائق صغيرة تختفي في الأزقة الملتوية للسياسة.

تعز مدينة لم تشفع لها تضحياتها الكثيرة؛ فبتنا نخشى عليها الموت إنما على أيدي أبنائها العصاة.. المدن تموت بالحرب والفوضى.

تحترق وتنازع كمدينة عدن في جائحة اكتساح المليشـــيا لهـــا خلال عام 2015؛ كأبين والضالع التي تلظت بنيران الهجوم.

ليس البشر فقط من يقتلون؛ صعدة مدينة ميتة.. ميدي مدينـــة ميتة؛ وحرض أيضاً.

دموع المدن هم أبناؤها يتساقطون في الملاجئ وخيام النزوح.

وحلم إعادة العمران بعيد كحلم انتهاء الحرب.

ندوب الحروب تظل في ذاكرة المدن مهما غسلتها الأمطـــار أو امتدت إليها يد العمران يوماً ما؛ ندوب تحكيها روح المدينة لأبنائهـــا جيلاً إثر جيل.

وفي منتصف يونيو "حزيران" انطلقت معركة "النصر الـــذهبي" لتحرير مدينة الحديدة..

تناثر أبناؤها نازحين في المدن القريبة وعصفت الحرب بمن تبقى؛ ككل معارك التحرير تبدأ ولا تنتهي..

قتلى جماعة الحوثي يحتلون حتى مدرجات الجبال إنما قبوراً؛ يدفعونهم زرافات نحو الموت؛ صور القتلى تعد قبل الشهادة؛ وتحضر حفلات التخرج؛ وتملأ الأرض والأرصفة.

إنه الموت لليمنيين ليس إلا.

***

كن وحيداً كي تبقىٰ أجزاء روحك مجتمعة..

رغم كل الأحداث العاصفة التي تستحوذ على تفكير وحيد؛ رغم اليأس الذي ينشب مخالبه في غلالة الأمل المنسوجة من حلم الوطن والدولة الحقيقية.

رغم أن العتمة تزداد في رؤيته للمستقبل..

إلا أن جزءاً من روحه يترقب رسالة من عفراء؛ ترقبها أياماً طويلة غير مصدق أن أشهراً قد مرت منذ آخر رسالة أرسلتها هي.

ما زالت عفراء نافذة الهواء النقي التي تمنحه القدرة على الصمود؛ ما زالت ذلك الحلم الذي يشبه الوطن؛ وما زال يسعى إلى الوصول.

ربما عفراء اعتادت الغياب وازدحام حياة القاهرة؛ ربما أنساها صخب أم الدنيا أن تتذكر هذا الوحيد الغارق بين الهموم ورمال مأرب؛ الحبيب الذي نضبت منه كلمات الحب واحتلت مكانها مفردات الحرب والنزوح والتشرد والجوع.

في رسالته الأخيرة استعطف اهتمامها بذل الفقد لكنها لم ترد!!

هل تعلمت اللامبالاة والقسوة منه؟!! أم أن هناك ما يشغل تفكيرها وقلبها غيره؟

هل يعاود الاتصال بها؟ أم يترك لها حرية اختيار انتظار أمل قد لا يحدث؟

هل يهون حب سنوات طويلة مع تخطيه كل الصعوبات التي مرت لينزلق نحو التبدد بعد أن أوشك أن يصبح رباطاً أبدياً؟

هو لا يحتمل التردد أو الحيرة بين أمرين؛ يفضـــل المعرفـــة وإن كانت قاسية؛ يتوق لحسم معاركه حتى تلك العاطفية؛ فحتى الحب في الحرب حرب أخرى.

أرسل لها ذات الرسالة السابقة وأضاف وجهاً مبتسماً ربمـــا لا يشبه وجهه الذي علاه الحزن والتوجس.

***

لم يدهشها وصول ذات الرسالة فقد استنفذت دهشتها حين وصلت سابقاً.

يلومها أنها أصبحت قيظاً وشمساً غائبة؛ وهو الذي يتجاهل حتى الرد على رسائلها؛ يتركها بالشهور الطويلة دون اتصال أو رسالة؛ ويشتهي أن تظل متوقدة الشوق لا يؤلمها تجاهله وانشغاله.

مهما فكرت في مساندته ولو قلبياً لا قيمة لهذه المساندة؛ تظل شيئاً يتذكره وليست شريك حياة يعيشها؛ تظل همومه وحكايات يومه ترمى في حجر زوجته.

هي شيء جميل كلوحة معلقة على جدار؛ لن يأتي ليضع رأسه المتعب على ألوانها الذائبة؛ فلديه صدر يتسع لكل تفاصيل حياته؛ هي فقط ليس لها سوى الحلم أن يكون صدره مأوى وحدها الصاخبة بكل الأشباح حولها.

هي فقط تراه كل شيء وهو يراها من بين أشيائه بصدفة التذكر.

حتى عندما حاولت تقليده في تجاهل الرد على رسالته؛ بقيت هي تحترق شوقاً وحزناً.

في حين نسيها كعادته وتذكرها بعد أسابيع طويلة كانت قد فقدت فيها الرغبة في الانتظار.

هل الحياة القاسية تنسينا أولئك الذين نحب وهم الجانب العذب في حياتنا؟!!

أم أن رغد العيش والدعة هو من ينسينا قلوباً أحبتنا رغم معاناتها وترانا مصدر الراحة الوحيد لها.

ألم بارد يعتصر قلبها لشعورها أنها تكتب رسالتها الأخيرة إلى وحيد؛ ربما هو اليأس أن يتغير شيء في حالهما أو حياتهما؛ ربما هي محاولة بائسة أن تدفعه إلى التمسك بها والسفر إليها وإنهاء هذا العذاب وكل الحيرة بينهما.

"عزيزي وحيد.. ماذا أقول غير تباً لهذا التواصل البارد..

كيف له أن ينقل هذه المشاعر التي تأججت في قلبي لتطفئه أنت ببعض الوجوه الصفراء الجامدة؛ ثم تلومني أني لا أفهمك..

أتذكر قبل عام حين أرسلت لك: "أنا في عدن فهل أراك" فتوجهت شمالاً إلى مأرب؟

حقيقة لم أدري لماذا؟!! لكنني فهمت أنه كان اختيارك.

الآن أيضاً لا أفهم لماذا تعزلني عنك؛ عن أحزانك وهمومك؛ لماذا لا تناصفني إياها كما ناصفتني هذه الروح التي تحبك؟

أنا التي تقضي نصف حياتها تحكي لك كيف تعيش النصف الآخر دونك؛ تقربني متى شئت؛ وتلغي وجودي متى أردت. لم أكن لأصدق أنك تحيي وتميت وأن بيدك الجنة والجحيم حتى عايشت لحظاتها؛ و لم أكن أدري أن إيماني بك هو سبب عقابي.

لطالما كنت كأنثى حالمة تتمنى أن تصادف رجلها.. فقط أتمنى أن أصادفه كي أصنع منه تمثالاً من الجمال وأعبده حباً؛ ذلك الذي سيراني كما أراه فقط.

كنت أرى الرجال جدران صماء..

جدران تخنق ولا تحمي.. يمكنها أن تنقض فتهرسني في أي لحظة أقف في طريقها؛

لم أثق في جدار كي أتكئ عليه؛ لكنني أتأمل في السقف كثيراً.

أنت فقط هو السقف المرتفع.. سقف أمنياتي.. سقف حمايتي.. سقف أحلامي.

وما أبعد هذا السقف عن أصابعي المتعثرة.

فهل سقط السقف أخيراً وهشّم أحلامي؟!!

أنت يا وحيد الأمير كنت الأمير الوحيد الذي تمنيت مصـــادفته ليكون حقيقة أحلامي.

لكني لا أحتاجك حقيقة.. أو حتى ظل حقيقة..

سأختار لأول مرة.. لنفترق يا وحيد؛ دعنا نفترق.

وإذا كان خيط الخيال الذي يجمعنا متيناً سنلتقي يوماً.

* * *

قالت: متى نلتقي؟
قال: بعد عامٍ وحرب.
قالت: متى تنتهي الحرب؟
قال: عندما نلتقي.
- الحرب لا تنتهي يا درويش؛ أربعة أعوام والحرب لا تنتهي؛ أكلت كل شيء حتى قلبـــي الأخضر.

ها قد عادت الخيارات الصعبة تطرق عقلك يا وحيد؛ لم يعـــد الاختيار بين أن تذهب إلى عدن أم إلى مأرب؛ صار الاختيار أن تبقى في وطن يغرق أو تتركه وترحل كما يفعـــل الكـــثيرين أمثالـــك؛ وكعادتك تختار الأصعب..

ألن نلتقي يا عفراء؟!.. لو أننا نلتقي ستنتهي الحرب..

أحين تقررين يوماً أن تختاري تختارين أن نفترق؟!! ترين أن مـــا بيننا خيط من الخيال؟!

أنصف الروح محض خيال؟ انتظار سنوات تنتهي بفـــراق قبـــل اللقاء؟

تبدين جادة يا عفراء وأبدو عاجزاً عن الـــدفاع عـــن الحـــب كعادتي؛ إنه ذلك العجز أمام الفقد الذي يلازمني؛ يجعلني أرفع كفيّ استسلاماً للقضاء كما رفعت كفك الحبيبة مودعة.

وها أنا أعود لكآبتي؛ صاحب الابتسامة القتيلة؛ أكتب مذكراتي كعجوز منهزم؛ هزمته الحرب التي لا تنتهي والحب الذي لا يأتي..

كوطني أنتظر عاجزاً أن أصنع قدري وحدي؛ كوطني مـــددت يدي إلى قشة قصمت ظهري.

ما أصعب أن تمحو حزناً نُحت على صفحات الوجـــوه؛ مـــا أصعب أن تبتسم وكل شيء فيك يبكي؛ أأحفر في الحـــزن وجهـــاً يبتسم؟

إني أنتظر خيط الخيال أن يصبح حقيقة؛ أنتظر وأكتب يا عفراء حكايتي؛ حكاية الوطن؛ حكايتنا معاً.. تلك التي لم تنتهِ.

فأنا وأنت طرفا جرح لهذا الوطن؛ ينبغي أن نلتقي كي يلتئم..

ها أنا أغني مع "لطفي بوشناق":

أنا اليمني يا وجع اليماني..
وجرح الأرض تحمله اليدانِ..
بلادي... يا بلادي أي صمت
سيخلق ما تفجر من بياني..
وصوت الحق يزأر كل حين...
وينطق في الدماء بلا لساني..
طلبنا السلم والطاغوت يأبى..
غرمنا العيش في كنف الأماني!
صبرنا صبر من عشق البلادَ...
وقلنا النصر أو خلد الجنانِ..
أنا اليمني... هذا البيت بيتي...
ولي صنعاء تمطر بالجرماني...
وفي تعز سأصمد والمكلا..
وفي عدن سأثبت في مكاني

بلادي... يا بلادي..
أيا نهراً تفجر في الفؤاد وفي الكيانِ...
جعلت الحب نبراساً لقلبـــي...
وعشق الأرض تنسجه المعاني..
ومعنى الحب أن الأرض تبقى...
ويبقى النصر في مقل اليماني..
أنا اليمني يا وجع اليماني...
وجرح الأرض تحمله اليدانِ..